تليباتي

جميع الحقوق محفوظة

الكتاب: تليباثي

جنسه: مجموعة قصصية

المؤلف: هيثم بهنام بردى

الطبعة: الثالثة ٢٠١٦

لوحة الغلاف: شهد هيثم بردى

ردمك: ٩-٠٨-٥٤٤-٩٩٣٣-٩٧٨

صدرت الطبعة الأولى عن دار نعمان للثقافة ببيروت عام ٢٠٠٨.

صدرت الطبعة الثانية عن دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق عام ٢٠١٠.

المجموعة القصصية الفائزة بجائزة ناجي نعمان الأدبية اللبنانية عام ٢٠٠٦

أمل الجديدة

طباعة . نشر . توزيع

سورية - دمشق

جوال ٠٩٣٢٤٧٢٠٩٦ -٠٩٣٢٠٠٢١٢٦ -

هاتف: ٠١١٢٧٢٤٢٩٢

E-mail:ammarkordia@yahoo.co

هيثم بهنام بردى

تليباتي

مجموعة قصصية

طبعة ثالثة

تليباتي

بعد الغسق الذي يغطي الحديقة برمتها ويضفي على أوراق أشجارها تلك الصبغة البرتقالية الشبيهة بالموت، يوصد الأبواب كلها، يقفل درفات النوافذ، يسدل ستائرها الزرقاء الداكنة، ثم يعمد إلى إطفاء الأنوار كلها فيغرق البيت بالعتمة المهيمنة على استحياء... فقط النافذة المطلة على الحديقة الخلفية للبيت التي تعتمر عرائش العنب بعناقيدها الناضجة المدلاة تبقى مضاءة تفرشضوءها الساطع من خلل حوافِ الستارة وتنتهي الأضواء فوق جسد الكلب العملاق المربوط بسلسلة حديدية بعمود خشبي والمكوّم على الأرض واضعاً رأسه المثلث بين قائميه الأماميين بتراخٍ وتلذذٍ لا مثيل له.

يقف عند مدخل غرفة الرسم، يتأمل المصباح المتدلي بسلسلة استوطن حلقاتها الصدأ، مصباح بهيئة غربية مميزة مزركش بنقاط سود هي بقايا حشرات طائرة متفحمة على الزجاج، ضوءه المرجرج يسقط على الحيطان الأربعة المحزَّزة بلوحات متقاطرة من الزيت أو تخطيطات

بالحبر الصيني تعلن عن وجه أنثوي واحد بتفاصيل متطابقة متماثلة تماماً في أوضاع مختلفة، جلس على كرسي قديم دوار جاثم في منتصف الغرفة أسفل المصباح بالضبط! يسقط الضوء على وجهه، وجه وسيم تفاصليه أقرب إلى وجه الأنثى منه إلى الذكر، عينان ناهلتان حالمتان، أنف أقنى يوحي بالخيلاء، فم دقيق، أسفل جهته اليمنى آثار ندبة قديمة، جبين عريض يماثل صور أولئك المحاربين الرومان أو اليونان أو الآشوريين، وجه هو مزيج من الجمال الباهر والصرامة المستديمة، والمتأمل لوجه الرجل، والوجوه الأنثوية المرسومة على اللوحات لا يخطئه التشابه الكبير بينهما حد التطابق.

نهض من كرسيه، وقف كالتمثال، تحت المصباح تماماً، صار ظله أمامه، تأمله بإمعان، وجده ملموماً مضغوطاً، تخيل نفسه بجسده المفتول الفارع وقد استجاب إلى تكوين لا أبعاد محددة له، أراد أن يلعب قليلاً ليطرد الملل من نفسه، مد يديه إلى الأمام، فخرجت من الظل اسطوانتان قميئتان ثم تلاقتا استجابة لفعل الجسد الأصيل، رقص استجابة لموسيقى صاخبة تهدر من أعماق حشاياه فتقولب وتشكّل ظله بأوضاع مختلفة ولكنه بقي

أسير جسده موثوق بقوى غيبية لا ترد...

صحا على نفسه، ابتسم وأسر بصوت خفيض.

– إن هي إلاّ لحظات مترعة بخيال جامح وسلوك يبعث على الضحك.

مشى صوب النافذة وتأمل ظله وهو يتخذ تناسباً عكسياً مع المصباح المتدلي. صار ذلك الظل القميء المنتفخ كبطيخة، طويلاً نحيفاً مثل خيارة، وقف أمام ما أبدعته أخيلته المسكونة بأقصى درجات الخلق، وما أنشأته أنامله المجبولة بخلق كل ما هو خارق الجمال: جسد أنثوي مخلوق من شمع بلون لحمي، بتفاصيل دقيقة ساحرة عارية حتى من العري نفسه، فتاة ممشوقة بطول ياردة ونصف تقريباً، بوجه لا يختلف عن وجوه اللوحات، ياه، كم هي رائعة هذه التليباثية، وقف يتأمل وجهه في المرآة الباذخة المعلقة على جانب النافذة ويقارن ما يراه في المرآة مع قسمات التمثال، الشعر المتموج المنسدل فوق الأذنين وعلى الكتفين، مع ضربات أزميل النحت على هامة التمثال بتلك الحرفية المدربة، العينان العسليتان الناهلتان اللتان تماثلان الخرزتين المنغرزتين تحت الجبين الرائب لوجه التمثال واللتان تعكسان أشعة المصباح عسلاً

بشمعه، وقارن مدى تطابق الندبة بين وجهه الضاج بالحياة وتلك الموجودة تحت الشفة السفلى للتمثال الشمعي، الاختلاف الوحيد الذي استنبطه هو أن الوجه المرسوم في المرآة لرجل، والآخر الواقف أمامه هو لفتاة من شمع... مدّ أصابعه يتلمس التفاصيل بانتشاء غامر جعله يغمض عينيه ثم يهمس.

-حتّام الصمت...

ثم ينقر جبينه الشمعي ويأمره..

-أنطق يا بشر...

ينتظر الآخر... وحين يداهمه اليأس يخاطبه كمن يلقي قصيدة.

في البدء كانت الحكاية

وكان الليل والنهار

ومآسي الإنسان

يتوقف، يبلل شفتيه ويواصل.

وكان الإنسان ابن الحكاية... يطوف

يدخل التخوم والعروق والصحارى والأسيجة

يعدو في فضاء الرب وهضاب الناسوت

يبحث... يكِلْ، يغفو...

ثم ينهض من جديد

يأتيه نباح الكلب في الحديقة طويلاً متأسياً متألماً، ثم يتحول إلى عواء فاجع متواصل ومن ثم يخيم الصمت على الأرجاء، يعود إلى نفسه، يرفع يمناه ويفرك جبينه الملتهب وتنتقل عيناه نحو الفم الشمعي المفتوح وكأنه يحاول أن ينطق بهمسة، يتهدج صوته وهو يخاطبه..

– لم تؤرِقني وتعذبني... كلّمني أرجوك.

يقطع الغرفة جيئة وذهاباً، يخلع سترته ويلقيها بإهمال على الكرسي، يشعل سيكارة يلتقطها من المنضدة، يمج منها نفساً ثم ينفثه فيتحلق الدخان دوائر تترجم حالته غير المتوازنة وهو في وضعه الفريد الغريب، في غرفة داخل بيت معزول ومسوَّر بأشجار الزان والكستناء والصنوبر ومجبّب بليل جهم صفّد قمره منذ الأزل وحتى تقوّض البنيان وأمامه امرأة فاتنة من شمع سوْرت لسانها داخل شفتين شهوانيتين نصف مزمومتين، يهمس.

حتام تبحث...

حتام تطوف..

حتام تحلم

الليل مصير الإنسان

تقرفص وأخذ يتأمل ضوءه الشمعي وشفتاه تعيدان...

الليل مصير الإنسان

أقفل فمه بأحكام وحاول أن يغور في عيني قرينه علّه يستشف سبب عناده ويفك بالتالي هذا الطّلسم الساحر في جماله، مد سبابته المرتعشة نحو الحلمتين... انفتحت في دياجيره كوى عبقة برائحة ذكرى عتيقة، ثقب ستارة الليل غناء جندب يبحث عن خلٍ هجره، فاخترقت وجدانه ذكرى هلامية سابحة في بحر من لذة طواها النسيان فازدرد ريقه بصعوبة جمة، كادت تفاحة آدم تطفر من لسانه، وبإبهامه حرث النحر بهدوء ثم طوقه بكفه وعصره بقوة ونطق الكلمات كالفحيح..

-تكلم يا بشر..

وبالسبابة والوسطى فرك الشفتين المكتنزتين، لسعته لدغة حادة في الصدغين وتقلصات متعاقبة في ربلتي ساقيه وبخور فضيع في ركبتيه فتهالك بإعياء على بلاط الغرفة وتكوم إزاء التقاء الركبتين البضتين، رفع نظره يتملى

معبوده، همس وهو يغور ويستكنه تفاصيل هذا الناسوت المنتصب فوقه كعمود من سنا...

-هل أنا تليباثي..؟!.

وبعد فترة صمت..

-هل عشقت ذاتي..

استلقى على ظهره وتملى الرأس، كان يعانق السقف متماوجاً مع وهج المصباح المتدلي فوقه تماماً، أحس للحظة خاطفة أن الشفتين ابتسمتا أو همستا، وأن الرموش تتحرك استجابة لفعل حي، ففرك عينه وهو يمعن النظر عميقاً، وهمس..

- هل أنا أحلم... هل يمكن أن تتكرر أعجوبة المثّال الأغريقي بجماليون ومعبودته الساحرة جالاتيا...

وتذكر تلك الصلاة الرقيقة للفنان المشبوب بعشق ما ابتكرته يداه فرددها بانتشاء ما له نظير: **((إنتِ، من غير ريب، تعلمين ما ألم بي من برح هذا الهوى الطارئ، وما تام قلبي من حبِ هذه الدمية التي صنعتها باسمك ونذرتها لك، فدهمتني، وشدهت روحي المبلبلة، وصارت لي أعذب الأماني، وأعز الآمال، وهي بعد رخامة لا روح فيها ولا نأمة، اكلمها فما ترد، وأناجيها فما تجيب، واغني لها**

فما تبتسم!.

أنتِ قديرة يا فينوس، فانفخي فيها من روحك، وانشري الحياة في أركانها، وامنحيها النبضات والأنفاس))؟[1].

وقطع عليه صلاته التي رددها بشفتي بجماليون صوت عواء كلب الحديقة فتذكر جدته، ذلك القرن المجبب بالعباءة وهي تحارب طواحين الزمن بصوتها الثاقب... الكلب عندما يعوي، يعني أن أحداً من الدار سيموت.. وفكر... من في الدار غيري وهذا التمثال الشمعي... فإذن من الممكن أن ينعكس الحلم ويكون أن أحداً من الدار سيولد من جديد...

يحاول أن يستعيد وقائع الأسطورة. ينظر من النافذة، تصطدم عيناه القلقتان بعيني الكلب اللائط والملتصق بالحائط، وفي نظراته توسل وخوف وتوجس، وحين تلتقي النظرات تتواشج منها ألفة حميمية غريبة فيتسلل الاطمئنان نحو الموقين، فترتاح نفسه وتهدأ أنفاسه ويعود إليه هدوءه، فيتجه نحو المرآة، يحدق في وجهه، يرى قسماته وقد عادت إلى سكينتها والتورد نحو وجهه، ويلمح من خلف ظهره في عمق المرآة إن التمثال قد استدار

---

١ -من كتاب (أساطير الحب والجمال عند الإغريق)، دريني خشبة.

بزاوية ١٨٠٪ نحو الباب، إنذهل وخاف وهمس في داخله... ما الذي يجري؟

سمع صوتاً أذهله..

- لم يجر أي شيء...

جمد الدم في عروقه وصار يسابق تمثاله في جموده، ولكن الصوت جعله يوقن بأنه ما يزال باستطاعته استخدام حواسه.

- لا تخف..

وبعد برهة لمحه يقف أمام التمثال الذي كان مشدوداً ومنشداً إلى جسده... رجل أشقر، رائق القسمات، في العقد الرابع، ينتعل خفاً جديداً ترتفع سيوره نحو ركبتيه لتلتقيان مع نهاية أطراف ثوبه اللبني وعباءته المقصبة، كانت لعينه سحراً لا يقاوم.

- أنا بجماليون... وقد أيقظتني نجواك وأنت ترتل صلاتي أمام الربة فينوس، فجئت أبحث عنك لأسري عنك، وأستكشف بلواك.

- ولكنك أسطورة..

ابتسم الفنان ثم نبر بجد...

- وإن كان كذلك، وهذا يجانب الحقيقة، فإنك

فوتَ على نفسك منذ البداية تحقيق أسطورتك..

وبالصدفة والدهشة وعدم التصديق، لازال مأخوذاً، سأل.

- وكيف ذلك...؟

- لم تكن مؤمناً..

- بم...؟

- بمصداقية ما تفعل..

ثم بعد صمت..

- كنت في تلك البقعة التي تفصل بين الشك واليقين، فاخترت الأول، أي أنك أبيت تصديق المغامرة..

انخرط في اللعبة، حاول أن يبرهن لنفسه بأن ما يحدث معه هو الواقع وكأن المثّال الأغريقي استنبط دخيلته، أفرد سبابته أمام وجهه وقال جاداً محذراً.

- إياك...؟

وبعد أن بلع ريقه..

- هذا هو خطئكم... ضيق الخيال...

- ماذا تعني...؟

- صدق ولو مرة بمصداقية ما تفعل..؟

– وهل تفعل أنت هذا..

– سبق وأن فعلته مع جدتها..

ثم التفت بكليته نحو التمثال الشمعي، ابتسم بوجهه، ثم صالب كفيه على صدره، ورفع رأسه في وضع المبتهل وهمس بمناجاة رقيقة.

– رباه... فينوس يا ربة العشق والحياة.

ثم همس صلاة خافتة، إختض جسده كمن صعقته البرداء، ثم مد سبابته نحو التمثال... سرت الحياة في أوصال الآخر فمد ذراعه الشمعية وتلامست السبابتان، تضوّع فضاء الغرفة بعطر غريب يجعل الحواس في حالة تأهب، فتيقظت حواسه ودخلت دائرة الإنذار وهي تحاول عبثاً البحث عن بجماليون، كان قد اختفى من الغرفة بلمح البرق مثلما دخلها، كل شيء كان يدل على وجوده اختفى وأضمحل معه، ولولا اليد الممدودة للتمثال والسبابة المشرعة ليده اليمنى لكان متيقناً أن كل ما جرى كان مجرد حلم أو رؤية... ومما عزّز عنده اليقين صوته وهو لا يزال يردد.

– لم تكن مؤمناً...

صرخ بكل قواه..

- الحل..؟

- سيبقى مجرد تمثال من شمع.

واختفى الصوت، داهمه العواء مرة أخرى، لجوجاً، مؤسياً، حزيناً، ارتداه القرن من الزمان وهو يهمس... فناء... فناء... يعني موت..

الصفنة... وللصفنة سياط تهمي، تلفح، تنغرز في أوصال الذاكرة والوجدان فتجعل المرء في حالة عدم توازن تتناوشه عواصف التيه واللاأبالاة والألم، ألم ممض يتغلغل في حنايا الخلايا فتعوي الأعضاء مترجمة عمق الألم في الروح والجسد..

- أين أنت يا خلّي...

وبعد برهة توقف يصرخ ثاقباً سدلة الليل الأبكم..

- يا صنوي..

يرد الكلب على نداء الثاوي بعويل طويل هو مزيج من نباح ذليل وعواءٍ ضارٍ...

- أين ذهبت...

فيُعاود بجماليون ظهوره الأثيري، وطيف ابتسامة شفوقة ترتسم على محياه، يقف إزاء جسده المختض، يتأمله بود، ثم يمد أنامله الناحلة البضة ويلمس كتفه، يحس أن ثمة

تياراً ينسل إلى داخله ويتلبسه شعور أشبه بحالة تجلي، أو حالة تماهي، أو تسامي، وأيا كانت المسميات، فإنها لن تترجم أحاسيسه في تلك اللحظة، فقد أحس انه يستطيع أن يستغور داخله الصافي مثل ماء نبع في شعف جبل يناطح أنفاس الآلهة، أو الملائكة، أو كائنات غير محسوسة بل مستنبطة من الصفاء والنقاء والبراءة، فرفع طرفه ونظر في وجه بجماليون، وكانت عيناه تقرآن داخله المعشب بالصحراء والصبار والكثبان الرملية الثابتة والمتحركة، غضّ طرفه وهو يشعر بالشنار، مد الآخر سبابته وإبهامه وأمسك بحنكه، ورفع رأسه، وحين تواصل الخطان بين العيون، عيني بجماليون، وعينيه، سمع صوت بجماليون...

– عندما تتلبسك حالة مثل الذي عانيتها قبل قليل، يمكن أن تسري الحياة في هذا...

ومد سبابته نحو التمثال المسحور بحضوره، ثم اختفى بجماليون وصوته يغمر فضاء الغرفة..

– حاول للمرة الأخيرة

فكّر.. إن مجرد وجود هذا الفنان الخالد في غرفته ومحاولته إبداء المساعدة له، اعتراف بموهبته كفنان قطع شوطاً مهماً للاكتمال، إنه يحس بوجود الآخر، من خلال

وضعه الفريد وسط المرسم، والليل السادر في الخارج عبارة عن القماشة البكر التي سيضع عليها لوحته الأثيرة الساعية إلى النضوج... نعم، ربما سيرسم معبودته الشمعية حين تسري نفحة الخالق في أعطافها، وخطف نظرة نحو التمثال، وجده مأخوذاً بنظرة ساحرة نحو نقطة ما في الفضاء وكأنها تحاول اللحاق بالفنان الأغريقي الذي لا يزال يحسه في الغرفة، تقدم نحو التمثال، نظر إلى عينيه الزائغتين ثم همس وقد أفرد ذراعيه إلى أقصاهما مثل كاهن آشوري أو إغريقي، أو روماني، لا ضير فكلهم سواء، استجمع كل أحاسيسه في رؤوس أصابعه الناحلة المفردة ثم همس.

– اسمعيني يا صبية...

ثم بعد فترة صمت..

– سأدع قلبي يصلّي لأجل أن تسري الحياة في روحك، وسأعصر خلاصة ابتهالي ووجدي وسعيي نحو خلق الحياة برأس سبابتي اليمنى وأملي كله، أن يحدث هذا عندما تمدين سبابتك لملامسة سبابتي...

ثم أغمض عينيه وأخذته غمامة تصفر فيها الريح التي حملته إلى أقاصي الأرض المتباينة فطوراً يعرق جسده كله

فينضي عنه كنزته، وأخرى يحس بالدعة والراحة فتتمدد أوصاله، وثالثة يغمره المطر فيستدعي أعضاءه ليتكور جسده كالقنفذ، وأخرى تعصف به رعدة ممسوس بالحمى فيصير ناسوته ساعة تنبيه يهتز جرسها بتتابع نظيم وتسارع مبرمج...! وعيون الليل تبحث من خلال فتحات الستارة الأرجوانية لنافذة الغرفة وتحاول أن تستكنه كينونة هذا الإنسان العصابي وهو يمارس طقساً فريداً في التحكم بالجسد، وقسمات وجهه تترجم المراحل التي يمر فيها هذا المخلوق المسكون بالغرابة والعزلة والجنون...

فتح عينيه ثانية، كان لهما بريقاً خاطفاً كعيون الهررة في شباط، وثمة ارتعاشه متواصلة في شفته السفلى المزمومة، ووجوم آسر يجبّب قسمات وجهه، قذف نظرة عجلى، حيرى، متوثبة، مترقبة، نحو سبابته، كانت كتل الجليد أو كثبان رملية، أو فراغ مفتقد لأية جاذبية، يطوق المسافة بين السبابتين، تعرشت حناياه بالصبار والجفاف، وتشققت أدمة الأرض الخافقة في قفصه الصدري، فترك ذراعيه تسقطان على جنبيه كمجدافين لزورق تائه وسط بحر هائج، أفتقد أي أمل في النجاة...

فخرج الصوت، صوته، أم صوت بجماليون زاخراً بالخيبة والشجن والأسى.

– لا فائدة...

تقرفص على الأرض بهدوء، وأنشأ يتأمل المعبود، مجرد شمع على شمع، قد يجتمع فيه الجمال الساحر والرقة اللامتناهية والأنوثة الطاغية التي تجعل الميت يتململ ويحاول الإمساك ببقايا الروح الهاربة ليرتديها ناسوته البارد حباً بهذا الكيان الماثل أمامه الذي يجعله يلغي سفرته السرمدية ويعاود القهقري إلى نقطة الصفر، ولكن كل هذا الجمال والرقة والأنوثة تفتقد إلى الجوهر، إلى النبع، إلى الحياة، إن هو إلا تمثال من شمع، يسمع صوتاً به نفحة من ثقة..

– حاول مرة أخرى، دع الخالق الكامن في قمقمه ينطلق..

مد أنامله ثانية، وأغمض عينيه مرة أخرى ثم تلا صلاته، أحس أن تهجداته تخرج من فمه ككرات ثلجية، باردة، لا حياة فيها، وأيقن أن ما يحلم به محال، وأن كل محاولاته محكوم عليها بالفشل، وأن بجماليون أصيب بخيبة أمل وربما سيشك بالمعجزة التي حدثت في

زمنه، وانه كان مجرد حلم لذيذ، أو سراب أو وهم، وبهدوء لم يعهده من قبل، مد كفيه وأحاط بخصر المعبود الشمعي، سمع همساً، أو رجاءاً، أو ابتهالاً...

– لا تدع الظلال تستوطن شمس الخلق في حشاياك..

صم أذنيه وحمل معشوقته بين يديه ومشى صوب المدفأة الحجرية المطمورة في الحائط المواجه للنافذة، وببرود صقيعي ألقاه في النار، تناهى إليه التوسل ثانية.

– لم فعلت هذا...؟ كانت النفحة تتشكل في الأعماق...

ولشد دهشته وجد الوجه، وجه ساحرته يتغضن ويتحزّز من الألم وبقايا آهة واهنة تخرج مثل نسمة ربيعية فوق الشفتين المنفرجتين..

– فينوس.. فينوس..

وحدّق في الباب، فرك عينيه ولهج..

– هل هذا معقول..

وأمامه لمح فينوس، أقيانوس بهي من الجمال الأخاذ، يمد يده إلى النار، ثم تنسل من الجوانح، جوانح معبودته، كرةً من ضياء مؤتلق وتطير خارجة من النافذة...

– إنها فينوس يا صديقي، استردت أمانتها التي زرعتها

في ساحرتك!

هتف مسلوب الإرادة..

- لم تأخرت...

جاءه صوت بجماليون وهو ينأى..

- كانت صلاتك، مثل حساء على نار هادئة..

وبعد فترة صمت..

- الحظ لن يطرق الأبواب مرتين..

وفي المدفأة، كان المعبود، مجرد شمع يتماوع تحت أسياخ النار الصفراء إلى أن تلاشى في الآتون، وأرسل إلى فضاء الغرفة عطراً زكياً غريباً في رائحته، فأحس أن النار تتدفق إلى جوفه والسعير يحرق الأخضر واليابس في أعضائه والحياة تنسل من عروقه، فرفع عينين دامعتين نحو الحيطان، وكان آخر ما احتوته العينان والأذنان والحنايا:

الصور المعلقة على الجدران والتي تفصح صور الإله التليباثي الرابض في كوى بعيدة داخل الأطر، وعواء متواصل مقهور مكتوي بالخيبة والأسى وبقايا ضياء بارق ينسل متدحرجاً من أعماق صدره ويتجول في الغرفة راسماً في ذاكرته السرمدية صورة فريدة، في ليل فريد، تحتفل

برجل ممدد على ظهره وقد تفحم جسده بفعل حريق غريب، الشيء الوحيد الذي يحتفظ به عينان مفتوحتان على سعتيهما تبحثان عن شيء نفيس فقد منه وربما... إلى الأبد.

الملحمة

هـو:

مـن مكـمـني الراسـف بالليـل السـرمدي لا أبصـر سـوى داخلي المغتسل بشمس سرمدية، أما ما وراء السور الشـاهق الذي يعتقل عينيّ ويضع حاجزاً ناصع البيـاض مـا بيني ومـا يحـيط بـي، فهـو عـالم غـامض، مـدهش، سـري، بكـر... يترامـى ويتصـادى خلـف الحـاجز الأسـود للنظـارات الثقيلـة الجاثمـة علـى أرنبـة أنفـي، ... أنـا لا أبصـرهم بعـيني، بـل أستشف أبعاد كلماتهم التي تتبعثر في الفضـاء كفقاعـات الصابون، أهمس لنفسي...

– ما رأوه قط على حقيقته مثلي.

وأفلتت الكلمة الأخرى كسجين تحرر من قيوده.

– ومثل الآخر..

رددت الكلمة مرة أخرى.

– الآخر..

وبأسى وحسرة لطمت الفضاء بلوعتي.

– أين أنت أيها الآخر..؟

فأنا، والآخر.. كنا كالظل الذي يتبعه، أو كالهالة التي

تطوق هامته أنّى ما حل، وكنا نحن الثلاثة آصرة لم ننفصل أبداً.

الآخر:

إنه عينه، لم يتبدل فيه شيء سوى انتشار النديف الأبيض في السالفين والشارب الكث، واسوداد العدسات التي تغطي عينيه، ويبدو من اهتزاز رأسه المتواتر وتقوس حاجبيه استجابة للكلام الذي يرقى إلى مسامعه، إنه فقد آخر ما تبقى من بصره، أما ما خلا هذا فلم يطرأ عليه أي تغيير، فالشعر المسدل لازال كما في الأيام الخوالي مدهوناً ومسرحاً تتموج خصلاته مع النسيم الهاطل كالمطر الربيعي من الأبواب الموارية والنوافذ المشرعة، ولازالت ذراعاه تحتضنان آلة العود مثل الكنغر في تفرده في احتواء أبنائه، الشيء الوحيد الذي تميّز به الآن، هذا التهالك على التدخين، فهو عبارة عن مدخنة لا تتوقف عن العطاء، عطاء خائب لدوائر من دخان أزرق حائر ينتحر بعد هنيهة من الإبحار في الفضاء، وبدنه أصابه بعض البدانة والترهل، ولكن أناقته هي هي، رجل في كامل الأناقة، ولكنه حزين جداً، أشعر بالنحيب المحتبس في حشاياه، تلتقطها أذناي المرهفتان والمدربتان على استكناه

أدق التفاصيل الحبلى بالإبداع، ...

منذ الأيام الخوالي، قبل أن تفرقنا الشمس والقمر في لعبتهما الأزلية في تبادل الأدوار، حيث تشتت كل إلى مصيره، وتفتت الآصرة إلى أجزاء بفعل عنصر آخر هدم كينونتها وحولها إلى عنصر جديد متشكل من أشلاء الآصرة الميتة....

فالكروان إلى ما وراء البحار، وأنا ورحلتي الغامضة نحو ذلك الحاجز الذي تعجز الذاكرة عن اقتحامه لكي يجلو الغموض الذي ارتدى أيامي الآتية وجعل كل أيامي تدور في بحثي المجنون عن كينونتي وسط مدن عديدة، وبيوت جديدة، وأزقة أخرى، وحدائق تلفظني إلى حدائق، وضياع يسلمني إلى آخر. ثالثنا فقط، عاشق العود، ، آثر البقاء في المدينة يبحث ويجاهد في إيجاد عنصر مساعد يجعل الآصرة تعاود من جديد تلاحمها وإتحادها، أفلح أخيراً في جذبي، حين قرأت عيناي الباحثتان أبداً عن الإنعتاق والهرب من مملكة التيه إعلاناً عند كشك يبيع الصحف والمجلات عن قيام أحد الأندية الاجتماعية إحياء أمسية فنية استذكاراً للمطرب الراحل...

هو:

– آه.. يا صديقي، كم أفتقدكما؟

وبعد فترة صمت.

– الأول غيّبته الحياة، والآخر غيّبه الزمن.

أفكر.. حقاً أن الموجة عندما تجّن تفرش جنونها على كل شيء، والموجة التي فرقتنا نحن الثلاثة كانت أعتى مما نتصور.

نفضت رأسي وأسرت لنفسي.

– منذ زمن بعيد لم أرَ الآخر، ترى أين هو الآن؟ وما الذي فعلت به الأيام؟

وأنتبه إلى أحد المتكلمين بصوت به تشفٍ يفضحه الميكرفون .

– وأود أن أعلن إن الرجل أخذ أكثر من حقه. حتى الأغنية الشهيرة التي تنسب إليه... غناها آخرون... قبله، فهي من التراث القديم المتوارث.

غامت الرؤى واكتسى ضباب أسود عينيّ ، كدت أنهض وأُحاجج وأزجر المتكلم، لولا إنني استلمت، بغتة، إشارة خفية نادرة، إشارة على شكل تنهيدة لا يستكنهها شخص غيري، فهمست لنفسي مذهولاً.

- إنه هو، الآخر..

وبعد صمت استجمعت فيه كياني.

- معقول..؟!

ومن غير إرادتي رفعت أناملي نحو النظارة ناوياً خلعها، ولكنني أحجمت عند اليقين المتأصل الذي يعاود تجذره في دخيلتي.

- الآخر، اختفى من حياتي، مثلما اختفى المطرب، في سنة واحدة، ربما تكون إشارة مشابهة.

ثم بأسىً عميق .

- وتركاني لوحدي، مثل نورس ضال .

وإستوفزت ذاتي القلقة عندما استلمت الإشارة ذاتها .

- إنه يقين محتم.. الآخر هنا.

وأنتبه إلى متكلم جديد، نبرة صوته دافقة حماسية .

- إن المطرب العزيز الراحل، لم يأخذ حقه، فإنه يعتبر بحق العندليب الذي ترجم بشجوه أحاسيس ومشاعر شعبنا.

ويتكلمون عن المطرب الراحل، بين مادح وهم كثر، وقادح وهو واحد لحد الآن.

الآخر:

قرأت الخبر أكثر من مرة، انهارت الأسوار التي كانت تصفد ذاكرتي وتسللت شمس فتية تخترق الأدران العالقة بالبصيرة، وأخذ قشر البصل الذي يكبل ذكرياتي الغائبة يضمحل ويتلاشى أمام الصور التي تدفقت كالشلال تغسل التيه، أتمعن في الصورة بعمق ولوعة، يعانقني الوجه الصبوح الطفولي الوسيم بربطة عنقه البنية الأبدية وتلك النظرة العميقة البارقة التي كان يتميز بها، اقتحمت تفاصيل الوجه جذاذات روحي وتفاعلت مع وجداني وروحي وابتدأت الصولة: انفرط شريط الذكريات من القمقم وتتالى في صور ساحرة مغلفة بالضباب مثلما تتبدى الدنيا بأشجارها وأنهارها وغاباتها البكر ساعة الشفق، فاحتواني الصحو من كل صوب، والصورة بكل تفاصيلها تخبرني عن تلك الأمسية التي تحدثت فيها الصحف والوسائل السمعية والبصرية عن تألق المطرب وسموه وارتقائه إلى مرتبة المتصوفة والتخاطريين وهم يمطرون الفضاء بصداح آلاف المؤدين، مؤدي الملاحم والجوالين والدراويش والمستبصرين، يزفهم إلى تخوم النيرفانا صولات العود الذي تسامى بين يدي العازف

الشاب الذي أراه الآن في الصورة يحتل الجانب الأيمن منها ونظراته تعانق الليل البغدادي بمودة وأمل؟ وهو لا يحسب، ولا يخطر في باله قط، إنه سيكون نزيل هذا الليل، يحصي ساعاته ويسامره باحثاً عن نفسه الضائعة، وهو يناغي الليل، ويتوسل النهار في مساعدته على إيجاد الضلعين ليكتمل مثلث الإبداع من جديد... نظرتي العميقة والطويلة إلى الصورة جذبت انتباه صاحب كشك الصحف الذي مشى نحوي ثم جلس جنبي وشاركني النظر فيها، ... أحسست بالفيضان ينبجس محتدماً من داخلي ويهدر إلى منخريّ وانبثق السيل الجارف يغسلني ويطهرني فأخذت أنشج، ثم تحول نشيجي إلى بكاء، بكاء له بداية ولكن لا مطاف منظور له.

هو:

جلّهم يمدحون عطاء المطرب الأصيل، إلاّ ذاك، أُقر من مكمني وأنا ألوذ بصمتي المصطخب إن كلامه به عن الصحة الشيء النسبي، نعم إن الأغنية كانت متداولة في الأعراس منذ قرون عديدة، فقد أورثها الجدود للأبناء والأحفاد مثلما أورثوا أسماءهم، فقد انتقلت إلينا، وكأنها صنو شهيقنا، منذ الجد الأزلي الأول، مروراً بنا،

وسيتوارثها حفيدنا الأخير، ... هذه الكلمات الأصلية كانت عبر تعاقب الأزمان تتسيّد الأغاني الكثر التي كان يؤديها أبناء القرى المتمرسون أبان الأفراح في الأعراس والأعياد، وكانت أصواتهم والأغنية تصدح في حناجرهم تتسامى لتعانق منابع الغدارن، ونواصي الجبال، وآهاب السهوب، ولجج الوديان، تسافر نحو قصبات البردي وصمت الأهوار عند الشفق، وذؤابات البيبون والقداح ودماء شقائق النعمان، ... نعم كانت تتناقلها الطيور والدواب، الريح والنسيم، الشمس والقمر، ولكنها كانت مجرد أصوات، مهمتها حمل الكلمات وإرسالها من صقيع إلى صقيع مثل حامل الأخبار الذي ينقلها بحيادية وحرص دون أن ينظر في دواخلها وجوهرها، أصوات تفتقد إلى استجلاء روح الشاعر الأول الذي نسجها من جمار روحه، أصوات لم تتمكن من الغوص في صدفة الشعر وإخراج اللؤلؤة، من يتسامى مع القصيدة وواضع القصيدة، من يجعل الحرف والكلمات تتسامى، تصل حد التوحد بالأشياء، من يجعل المتلقي لا يردد الكلام مع المغني كالببغاء، يمس القشرة دون الغوص في الروح، بل يتماهى مع المطرب ليجعل الأغنية ترافق الزمان والمكان

أيـاً كـان، وأينمـا كـان، في الجبـل، الـوادي، السـهل، الصـحراء، في الضـيعة، القريـة، المدينـة، في الأرض، في السماء، ... كان يقول للآخر...

- إنني أحس وكأني أم تتهيأ للطلق.

وكـان الآخـر، يرسـل ضـحكة كالرعـد، فـاهرع إليـه وأكمّم فمه وأهتف بحنق.

- أخرس أيها الفوضوي، ستطردنا الحيزبون شر طردة.

وبعد صمت أهمس.

- هذه خامس غرفة نؤجرها هذا العام.

فقال المطرب..

- أسمعا لما سأقوله.

وأمام سحر شخصه أنشددنا إليه، همس.

- سـنجعل هـذه الأغنيـة تنطلـق مـن قمقمهـا، وسـنؤديها بأسلوبنا الخاص.

ومـد يـده إلى جيـب قميصـه، وأخـرج أوراقـاً مطويـة، فضّها، أعطـاني واحـدة، وللآخـر واحـدة، وأحـتفظ لنفسـه بالثالثة، وقال:

- ألقوا نظرة معمقة.

ونفعل، كلمات الأغنية هي نفسها التي كنا نرددها في شعاف الجبال المكللة بغابات الصنوبر والزعرور والجوز والسنديان، وأيكات الصفصاف والأثل والنخل، ومويجات الأهوار الحبلى بالبردي والقصب والزاخرة بالخضيري والحبار وبط المياه المهاجر، وكثبان الصحارى وبحار الرمال ونواح الصبار، فقط الذي أحسسنا به وجعلنا مذهولين هو تلك النوتة الغريبة التي تختلف تماماً عن اللحن الذي درجت على ترديده الأجيال تلو الأجيال، صحوت من الذهول، ألتفت إليه، كان المطرب يحدق فينا بعينين أحسست أنهما مستعارتان من كائن آخر، ارتعدت أوصالي وأنا أتملاه، وفي لحظة وامضة تيقنت إن الذي يجلس قبالتنا ليس صاحبنا، بل شخص آخر، همست.

– ما هذا..؟

عاد الآخر إلى صوابه، وحين حدّق فيه، وألتفت إليّ، وجدت في عينيه نفس البحر من الحيرة الذي يزجني من موجة عاتية إلى أخرى.. فهمس باسمه والمطرب لا يزال كالتمثال، تمثال من لحم وعظام وجلد. شهيق وزفير، قمت من كرسي، هززته بعنف... صحا، كان مثل مسافر حط رحاله من سفرة بعيدة لأصقاع نائية متجمدة يرتعص

وقد مسته البرداء، أسنانه تصطك، أنفاسه متلاحقة متهدجة، جاءني صوته مثل دقة ناقوس بعيدة..

- ماء.

ناولته قدح الماء، وأنا في حيرة من أمري، والارتباك يعتصر الآخر الذي همس.

- ما الذي أصابك..؟

استعاد هدوءه، ارتحل الاصفرار الذي كان يرتديه وعاد إلى وجهه تورده ووسامته.

ثم همس..

- أسمعتم بالشاعر الذي كتب قصيدة ليست له..

استشففنا نبرة الغموض في نبرته، لم ننبس ببنت شفة...

- غناها أمامي.. ولقّنها لي.. ودوّن النوتة.

بعد أن وجدنا لساننا، همسنا

- من..؟

- الشاعر الأول.

الآخر:

بكائي الحار الصادق جعل صاحب الكشك يتعاطف معي بحميمية فربت على كتفي برفق دون أن ينبس ببنت

شفة، ولكنه استنبط وبإحساس مرهف كونه يمتهن عملاً يتمركز حول ما تنتجه الذاكرات التي تعمل بدأب لا يرتاح ولا يستكين في حنايا الرؤوس الحبلى بالاختراع والخلق، إن هذا الرجل الأشعث ذو الخرق التي بالكاد تستره يحمل في داخله إنساناً حطمته رحى كادت تودي به إلى الانطفاء لولا الصورة المطبوعة على الجريدة، تناول الجريدة برفق وتفرس فيها بعمق، وحين تأمل وجهي الأنيق سرت في أناملـه إرتعاشة قصيرة، ثم حول عينيه يتملى تفاصيل وجهي لبرهة غير قصيرة، توقف بؤبؤاه على بؤبؤيّ ثم تحول نحو الصورة، ران عليه صمت ثقيل وكأني به ينتحب، أسمع نحيبه هناك عميقاً في الكينونة، أحس إن روحه ارتدت جسدي في الحالتين، الحالة الراهنة، وزمن الصورة، رفع رأسه، همس بإعياء.

– إنه أنت..؟

ثم بلع ريقه واستطرد متسائلاً

– صحيح؟!.

وأجابته دموعي... أنا موقن إن الدموع التي انساحت لم تكن من موقيّ بل من مكان آخر أجهل مصدره، ربما كان من جسدي، أو من جسد شخص آخر، هذه الدموع

المسوسة كالريح المجنونة كانت تطرد كل طبقات النسيان والتبلد والضياع التي كانت تسوّر روحي، بصري، بصيرتي، وفي لحظة رهيفة، ناصلة، حادة، كنصل السكين، تدفقت الذكريات إلى كياني كمطر ربيعي منعش، وتشربت الذاكرة المتحجرة، المحلة، باليقين، واحتشدت الصور تقتحم ذاكرتي كالفيضان، أو السيل، أو الموجة العاتية، فإنعتقت من عقالها، أو مصباحها، أو قمقمها، أو قلعتها القاسية القصية، وتذكرت التفاصيل بالتدريج، ومن الصفر، من اللحظة التي استقللت فيها الباص السريع الجديد، وحتى بدء رحلتي المضنية، ومحاولاتي العديدة الفاشلة لاستشفاف ما بعد الركوب، ذهبت، الواحدة تلوا الأخرى، أدراج الرياح..

همست لنفسي بلسان وصل أخيراً كمركب تائه إلى المنار..

– كم هو صعب، ومضنٍ، وقاسٍ، أن يتيه الإنسان في مهاوي الضياع.

وعانقت عيناي الوجه الودود لصاحب الكشك، واستطردت بهدوء يفضحه فرح لا حدود له.

– كم هو جميل أن يقتنص الإنسان ذاته الضائعة؟

وأومأ برأسه موافقاً دون أن يستشف مدلول الكلمات، فقد كانت الحيرة توأمه في هذه اللحظة النادرة التي يكتشف منها إن هذا الرجل الجالس على صفيحة كاز صدئة بثيابه الخلقة يقتنص ذاته من جديد، ابتسمت له وقلت:

- أتمانع أن تكون أول صديق لي بعد عودتي من ذلك العالم.

فهمس بود.

- أين كنت؟

- في مجاهل الضياع.

فهمس بلذة المكتشف.

- فقدان ذاكرة

رفعت الجريدة وأشرت إلى الصورة وقلت.

- هذه أعادتني إلى هنا..

وأفردت ذراعي، وبحركة دائرية احتويت الشارع بما يزخر فيه من خلائق ومركبات، ووضعتهما في المدى المحصور بين الذاكرة المغيّبة الراحلة، والذاكرة المهيمنة الراهنة.

هـو:

إن حدسي لا يخطئ قطعاً، إني أهجسه، أسمع شهيقه وزفيره، إنه يحاول أن يبعث رسالة، أستلم وشوشة غامضة، بها شفرات وصل ومحبة، ولكن ممن...؟ أخمن، بل أقطع إن أحد الحاضرين يعرفني جيداً، وإنه يمارس معي لعبة التخاطر...هذه اللعبة مارسناها معاً، أنا والآخر الغائب والمطرب الراحل، كنا نجلس في المقهى والصمت رابعنا، ونسافر كلٌّ إلى داخله أو وجدانه، ثم وبعد الرحلة المضنية والممتعة معاً، نخرج أوراقنا وأقلامنا ونسطّر، وعندما نتبادل الأوراق للقراءة كنا نكتشف بأننا كتبنا شيئاً متشابهاً يصل حد التطابق، هذه الخصلة أو الميّزة كانت تتعمق وتنمو بيننا بتصّرم الأيام والشهور والسنين، فما أن ينتهي الآخر من كتابة القصيدة حتى تستلمها ذائقتي التي لا تجد صعوبة في تلحينها ومن ثم تتلقفها الحنجرة الساحرة للمطرب الحبيب، فتنتشر بين الناس بسرعة البرق، إن الإشارة التي يرسلها أحد الحضور في هذه الأمسية المخصصة لتأبين المطرب الراحل، سأجعلها مخصصة للاثنين اللذين تركاني وذهبا، الأول طوته البحار في مغامرته المجنونة نحو المجهول وابتلعه خمبابا،

والآخر الذي ضاع في غابة الأرز... ولم يبق لي سوى الليل والذكريات التي تعلك ساعاتي، وغليوني الذي أشاكس فيه مشروعنا الموؤد، ذلك الذي بدأناه في أوج العنفوان والشبوة والعطاء، لازال ذلك اليوم يعيش معي كالقرين، حين قال الآخر وهو يدخل الغرفة والبشر يطفح من عينيه.

- كتبت قصيدة ملحمية.

قال المطرب وهو يضع المخدة في حضنه ويعتدل على السرير الوحيد للغرفة.

- ملحمية؟!

ورددها ثانية مع نفسه، ثم همس.

- تأريخنا سجل مفتوح للحكايا والأساطير والملاحم.

وبعد وقفة، هتف متحمساً.

- ولم لا..؟

وألتفت إلى الآخر وهمس.

- هات.

اعتدل الآخر على الكرسي المتداعي، فتح درفة النافذة وتهيأ للإلقاء، ولكني قاطعته.

- لحظة.

وأغلقت النافذة وقلت مناكداً.

– لكي لا تهرب العصافير.

ضحك المطرب، ثم قال.

– سيقوم العود والطبلة بلم شتاتها ثانية.

قال الآخر..

– سأقرأ الملحمة، حتى ولو للحيطان.

وألقى الآخر ملحمته، زاملنا في إصغائنا صمت آسر، وذائقاتنا ترتحل مع حيواتها المتدفقة، كان كل مقطع يرتله من الملحمة يحفر في روحينا توهج الكلمة وسحرها الخرافي في جماله، لتنمو في وجداننا أشجاراً من نخيل وزيتون وتين، وخمائل من عنب وتفاح ،وبساط قشيب من حبق وخزامي..، وعند (الحرمل) العشبة التي جسّدت الفرح باقتراب البلوغ نحو نقطة الخلود، والإيثار في مشاركة كل البشر هذه النعمة، والخيبة المريرة في إبقاء الجملة نهاية السطر، أو الرحلة، بلا نقطة تقفل وتنهي السفر المضني في اكتمال الطقس، طقس البحث والمنال والضياع والتهالك والأسى واليقين بأن لكل جذوة انطفاء، ولكل نوء سكوت، ولكل عاصفة انتهاء، تنتهي الملحمة. وأخلدت الأنفاس المبهورة للآخر إلى صمت تدريجي ارتفعت

معه زقزقة العصافير، ونواح الفاختة، وصخب الأطفال في الأفنية والأزقة، وصراخ الباعة في فم السوق، وسفرنا معاً، نحن الثلاثة ونحن ننصت إلى جرس الكلمات التي شيدت لها لحناً غنته الأطيار والزحافات ومخلوقات المياه..

ويلتقط كياني الإشارة من جديد... إنني الآن على يقين تام، إن هناك من يتنفس معي، ويدخن معي، وتسري دماءه في شراييني...؟ ويشارك فؤادي وجيبه المتسارع، ولكنه من يكون؟ الأول طواه الموت؟ والثاني دخل ممالك الضياع والنسيان... رباه... من يكون؟

الآخر:

أراه لا يستكين، مثل كائن محاصر، يمّج سيكارته ويطلق الدخان بقوة فيتلاشى في الفضاء بعد أن يشكل خطوطاً متقاطعة لوهلة قصيرة، أستلم لجاجة روحه الأسيرة وهي تبحث عن منفذ للإنعتاق من خيوط العنكبوت التي تحّدد قضبان زنزانة ذاته المعذبة، حتى ذراعاه اللتان تمسكان بقوة وحنو عوده الأثير تراختا وأمسكتا بمسندي الكرسي ثم انحدرتا نحو ركبتيه المطبقتين وتعانقت قبضتا يديه عند التقاء الركبتين، كأنما يتهيأ لقفزة جبارة يحلق فيها في الفضاء بحثاً عن

شيء نفيس مفتقد، إنني أستلم إشارته بوضوح، إنها دافقة معبئة بسؤال مبهم عن كنهي، يبدو إن الصدمة كانت قوية جعلت إلتقاطاته الإشارية يصيبها بعض الوهن، فتتشوش عليه جوهر الرسالة، للحظة، عندما اكتشفت سقوطه في عالم الظلام، إن إشارته أو قابليته على التخاطر ستتطور، إذ إن الإنسان الذي تُسلب منه حاسة من الحواس يستعيض عنها بأخرى، وربما الشم هي أقربها، ولكن محاولاته استبيان كنه الإشارة بالتلفت يميناً ويساراً وأتساع منخريه تغلفها بعض الضبابية، ...

– ربما بسبب الصدمة بفقده جناحيه وتعوّده على الأحراش كطير مقصوص الجناحين، وإنه الآن يبحث عن الشمس التي بإشراقها تذبح دياجير الضباب، ليجلو كل شيء، يسبح كحورية تحت شلال الضياء...

التفت إلى صديقي بائع الجرائد، الذي أصر أن يكون ـ فعلاً ـ أول صديق بعد عودتي من الرحلة، سّيما عندما حكيت له كل شيء ونحن في بيته، بعد إن منحني كل شيء: الحمام، الثياب الجديدة، وصداقته الجديدة الحقيقية، أصر على إن يصطحبني إلى الحفل، قلت له.

– إنه يحس بوجودي.

هـو:

يتكلمـون عـن سـجايا المطـرب الراحـل، يعـددون محاسنه، أحد أقربائه يتكلم ويحدث الحضور عن سيرته منذ ولادته في تلك القرية الجبلية البعيدة في أقصى الشمال ثم رحلته في ميعة الشباب صحبة زميليه الشاعر والملحن إلى بغداد، وسعيه الحثيث لإسماع صوته وألحان صديقه وشعر الآخـر في الأنديـة الاجتماعيـة، ومـن ثـم تسـلقه الشـهرة والذيوع في بغداد وفي الخارج مع كر الزمان، حتى صار إسماً لامعاً يُسمع في أكثر من وسيلة إعلامية، فالتلفاز يعرض أغنياته، والمذياع يقدم أغانيه كل يوم، والمحلات التجارية الخاصة بالكاسيتات تتسابق لاقتناء ألبوماته، فصارت تنهال عليه الدعوات في الشمال والجنوب من البلد، وصرنا مثل سندباد لا يحط رحله في جزيرة، حتى تناديه أخرى، حتى جاءت تلك الدعوة التي كانت بمثابة مسمار النعش الذي قوّض بنية الآصرة وشتت عناصرها، والتي لم أتصور إنها ستنفرط يوماً، فنحن الثلاثة كنا ثلاثة في واحد، أو واحد في ثلاثة، فكان ذلك الصباح الشتائي المطير نقطة الانطفاء واضمحلال الآصرة، حين دلف الغرفة وهو يتمايل فرحاً وبيده مظروف أنيق ينتهي

بشريط أحمر، هتف.

– أحزرا ما هذا؟

فبقينا صامتين، قال وقد زايله الطرب.

– ما بكما؟.

بقينا على صمتنا، أحس إننا نعرف، فقال وقد زايله الطرب تماماً.

– إنها دعوة للسفر خارج العراق.

وبعد صمت..

– قررت الرحيل، سأعمل على استقدامكما حال وصولي هناك.

وبعد صمت..

-سأشترط عليهم وجودكما معي...

و.. ذهب، سافر إلى الأقاصي، إلى غابة الأرز، ولم يردنا إي خبر عنه، ولكننا كنا نعلم إنه يعيش هناك... وربما يحيي حفلات، في البدء أرسل إلينا يخبرنا صعوبة سفرنا، ثم جاءتنا بعض الرسائل، ومن ثم انحسرت، وتوقفت، وبعد أشهر عديدة جاءتني الضربة الأخرى التي حولتني من إنسان ، طموحه لا تحده صفحات إلى مجرد إنسان يأكل ويشرب ويعد أيامه، حين فقدت الآخر،

اختفى فجأة ذات يوم، انصب كل اهتمامي في إيجاده فأضعت الأيام والليالي في البحث عنه، ولكنني كنت كمن يبحث عن قطرة ماء وسط صهد صحراء كافرة مترامية لا تعشق سوى سعير شمس لا ترحم وهي ترسل حممها إلى الرمال.. فصرت مثل طير بلا...

-أنت طير بجناحين..

إنه صوته، يقيناً إنه هو، ولكن هل هو حقيقي ما أهجسه واسمعه، ... أمد كفيّ نحو إذني، يأتيني صوته.

– إنني معك.. أقف جنبك

لا ليس ما أعيشه حلم، بل هو حقيقة قائمة، إنه صوت المطرب .

– ولكنك، اعذرني، فقد سمعت إنك رحلت عن عالمنا..

جاءني صوته دافئاً.

– عن العالم، أجل منذ زمن بعيد، ولكني الآن معك، ومع الآخر.

هتفت...

-الآخر..

وبعد حسرة.

- الآخر، طوته السنين.

جاءني صوته المفعم بالحياة.

- لكنه الآن هنا.

قلت في قنوط.

- مثلك، روح بلا جسد.

- إنه بروح وجسد..

وبنبرة فيها حسرة على أيام سالفة بهيجة همس المطرب.

- إنني معكما، أنت والآخر، أتوسد جوانحكما معاً.

أجهشت ببكاء صامت، انساحت دموعي على خديّ المتغضنين، فأحسست بسبابة تمسحهما، وصوت رقيق يهمس كمن ينتحب .

- إنني لم أرحل، فذاتي موزعة بينكما .

الآخر:

ما الذي يعتريني؟.. لِمَ أرتجف..؟! لِمَ تصطك ركبتاي؟!!

ثمة حالة تتلبسني، غريبة، لا عنوان لها، ولكنها خرافية في لذتها، .. أرى صديقي غائباً عن الحضور كلياً، وقد قوّم أذنيه كسلوقي يتهيأ لاقتناص صيد ثمين، وعيناه المطفئتان المختبئتان خلف النظارة السوداء تستجليان صورة

في الفضاء، وشفتاه الرصاصيتان بفعل التدخين تتمتمان بتواصل لا يهدأ مثل سحرة الكهوف، أو كهنة المعابد وجسده يرتعش مشدوداً نحو نقطة ما، ثم ثقب فضاء القاعة صوت المذيع الاحتفالي.

– والآن أعزائي الحضور، أتركم مع رفيق درب مطربنا العزيز الراحل، مع الرجل الذي رافق المطرب الأصيل منذ نعومة أظفاره، وهو يلحن أغنياته التي حفظتها القلوب قبل الشفاه...

هو:

يرجعني صوت المذيع إلى القاعة، أنهض على مهل وأتحسس بساعدي آلتي الأثيرة إلى روحي، أضعها بين الساعدين فوق القلب مباشرة ثم أنقاد كطفل يحبو للمرة الأولى إلى كف المذيع، يقودني إلى المسرح ويجلسني على الكرسي المخصص لي ثم أسمعه يعدل الميكروفون بموازاة وجهي، ثم همس، خلت إن المذيع هو يكلمني ولكني سمعت صوت المطرب.

– ألم يحن الوقت لنغني الملحمة.

وزّخ اللحن مثل شلال إلى ذاكرتي، همست.

– أجل، حان وقت الملحمة، اللحن موجود، هل أعزف

المقدمة؟.

سمعت صوت المطرب، كما في الأيام الخوالي، دافئاً، دافقاً، رجولياً، ملائكياً.

- هيا

أفلتت من فمي آهة حزن عميق استجابة لنحيب المطرب التي أختصرها بـ(هيا) التي زخرت بالحب اللامتناهي، والغياب اللامتناهي، والحضور اللامتناهي... همس

- هناك مفاجأة في الانتظار.

وصمتي الذي واجهته به كان معبئاً بسؤال لا يزال يتسربل بالمفاجأة الأولى.

- مفاجأة..؟!.

- هيا أعزف المقدمة.

ثم تحتويني كفاه، يلمس خدي، أستشعر دفق الحياة يتسلل من نهايات أصابعه نحو عروقي، فأتماهى مع روحه المهوّمة المهيمنة، أسمع تصفيق الحضور، فأستل الريشة من جيبي وأدوّزن الأوتار، ثم أنهض نصف قامة وأحني هامتي للجمهور، وبعد أن أسحب شهيقاً عميقاً أقول بنبرة خطابية.

- سأغني لكم في هذه الأمسية التكريمية للمطرب الراحل أغنية (الملحمة) التي لم تمهلنا الأيام لكي نؤديها

في حينها.

وتخلق ريشتي عالماً حيّاً نابضاً بالتوثب الذي لا مدى له، كانت الذاكرة قد صفدته في مجاهلها فاعتق من أصابعي والأوتار لحناً، يتصاعد، يسمو، ليبدأ أولى رحلات الإنسان الأول نحو فراديس الضياع.

الآخر:

همست لبائع الجرائد.

– سيغني الملحمة.

وبعد فترة صمت.

– سأساعده أن نسي القصيدة..

وقبل أن أقول لجليسي إنه بدأ يتخاطر معي، بفعل قوة خارجية غير محددة المعالم بالنسبة لي أحسست بلمسة واحدة على رقبتي، ألتفت... كان الرجل الجالس خلفي مشدوداً نحو الملحن، عدت إلى جلستي واعتدلت.. ولمستني اليد ثانية، ولكن هذه المرة في خدي، ألتفت... كان جليسي الآخر في عالم غير عالمي، سوّرتني الحيرة لفترة قصيرة، ثم سمعت همسه.

– تعال معي..

ورأيته...!؟! .. بعينيَّ الباطنيتين.

يقف المطرب الراحل إلى جانبي وذراعه ممدودة، نهضت وأمسكت كفه، وقادني نحو المسرح كالمنّوم مغناطيسياً.

هـو:

يقترب مني، أحس خطواته، لا ليس المطرب لوحده، بل هناك آخر أعرفه، كلما أقترب خطوة، يتعمق إحساسي بحضوره الجميل، ورغم إن حواسي مسخّرة لخلق أجواء الملحمة، بصيرتي، بصري، أناملي، ذاكرتي وهي تحاول أن تستذكر نوتة مشاكسة تأبى الانصياع، بيد إني أمسك بها وأقودها نحو الآذان، أحس وجوده المادي وهو يجلس قربي، تشوش فكري وكدت افقد اللحن، بيد إنني سمعت صوته.

– فاصو...

وأمسكت باللحن ثانية، واستمررت بالخلق، ... مهما أسهبت في الوصف لا يمكنني أن أحيط بتفاصيل تلك الدوامة التي ألقتني في بحر من السعادة والفرح، فرح لا يحده حتى الأفق الذي يحاول أن يقطع البحر، فأغرورقت عيناي بالبكاء، فأجهش العود ببكاء بطل الملحمة وهو يرى الديدان تخرج من أنف صديقه الحبيب، سمعت صوت المطرب..

- على رسلك يا صاح، إنك تعزف وسط الملحمة..

توقفت، صفق الجمهور بحماس وهو يجهل ما يحدث الآن على خشبة المسرح، من لقاء غريب وغير منطقي بالعرف السائد، مطرب راحل منذ عقد من السنين، وشاعر عاد إلى عشه كطير مهاجر، وملحن يحاول أن يعقلن ما يحدث، هتف المطرب كما في الأيام الخوالي.

- لقد بدأت الملحمة.

فانطلقت الطبلة تجلد الحضور بنداءات وتوجسات الرجل الأول وهو يحث خلّه ونديمه على خوض الغمار، غمار اقتحام المستحيل، وتحقيق حلم عصي، أبحر العود يشق غمار البحر، وعواصف النوء، ومجذافاه حلم مجنون لرجل مسلوب العقل يحاول أن يقهر المنطق والواقع ويرقى إلى السماء حيث الخلود وصرنا، أنا والمطرب والآخر ربابنة هذه السفينة نصارع العواصف والأنواء لبلوغ الجزيرة اليوتوبيا.

أحد الحضور:

ما يحدث الآن على المسرح ضرب من الخيال، ..

لم أكن أصدقه لولا أن أناملي متأكدة من وجودي المادي من خلال لمسي لمسند الكرسي الذي أجلس عليه

وساعد جليسي الأيمن، والدخان المتحّلق من سيكارة الرجل الجالس أمامي، والهمس المبهم لرجلين يجلسان يساري، وعيناي ترصدان فضاء القاعة السابح في ضياء أزرق حالم، فأتأكد أن ما أراه حقيقة، حقيقة قد تمس الخيال، أم إن الخيال تقمص الحقيقة... فلكوني أجلس في الصف الثاني وأمتلك أذنين حساستين تلتقطان همس الفراشات، فقد كنت أسمعها، الملحن والشاعر، ولكن ما حيرني إن ثمة صوت ثالث يشاركهما الحديث، فبحثت في الزوايا والكواليس، لم أجد أي شيء البتة، المسرح يحاذي الحائط، وليس ثمة غرف جانبية، فهو ملك لوحدهما حسب، ولكني واثق من الصوت الثالث، وأستكنه في نبراته نوع من السطوة المحببة، ولكوني أعرفهم جيداً، الملحن والشاعر والمطرب الراحل، عن كثب، وفي بعض الأحيان، كنت أجالسهم في السنين الخوالي، فقد أختلط على الأمر، وتساءلت والحيرة بحر يقذفني إلى الأعماق.

– هل تتغير قوانين الطبيعة، ويحدث شيء جديد يكون هو الاستثناء، فإن حدث هذا، ودخل دائرة المنطق والمعقول، فإن الاستثناء يحدث الآن.

وما عزّز ظني الذي يلامس شغاف اليقين من حدوث الخوارق، عندما بدءا بالغناء، الملحن والشاعر الذي ارتقى المسرح بغتة وهو يسير كالمنقاد وفي يده الأخرى طبلته الأثيرة، مثل طفل يحرص على الإمساك بطرف عباءة أمه، وهي تقوده أنى ما تشاء، ظهوره هذا المثير والفجائي بعد اختفاء دام عقد من السنين، يدرج ضمن هذا الاستثنائي الذي تحول إلى حقيقة توطدت في نفسي وأقنعتني بحدوث المعجزة، خصوصاً عندما تواصل الغناء... فقد تيقنت الآن، إن الذي انطلق بالغناء، والذي من المفترض أن يكون إثنان، الشاعر والملحن، كانوا ثلاثة... والثالث هو نبرة لا يمكن أن تخطأها أُذناي اللتان حفظتا كل طبقات صداح المطرب الراحل، ....

نعم إن الذي كان يغني الملحمة هم: الملحن، الشاعر، والمطرب.

الصورة الأخيرة

بحدقتين أرمدهما الرمل الحار اللزج الوخم، وأضناهما ثقل يرسف من مؤخرة جمجمته منحدراً من جبينه المقدّد بالشمس العاصرة وأبهرهما سطوع السماء الدائم، يرسم خطاً دائرياً وهمياً، يحاول من خلاله استجلاء معالم الأفق علّ صبيرةً أو هيكلاً عظمياً لحيوان أو بعير نافق يستدعيانه للتفيؤ في ظلالهما، وربما يجد ما يخرس رياح الجوع التي تقتلع أمعاءه وسياط الظمأ التي تلسع أحشاءه... المدى يترامى أمامه سجادة عسجدية من رمل فائرٍ تعوي في كينونته مثل ذئب عافه القطيع، ينتظر مخالب الموت، يسحب نظره المنداح نحو الأفق ويرميه بوهن حواليه، لاشيء سوى الرمل، رمل لا يحده نظر، وبحر يتلاطم أمامه متسارعاً نحو الأفق، أمواجه سراب متكاثف تحلّق في فضاءه نوارس تبتكره أخيلته المبتلية في إيجاد تفسير منطقي لوجوده الفريد والرومنطيقي في هذه البقعة النائية من الكون، يجمع شتات بصيرته ويحاول أن يجلي هذا الساتر الضبابي الذي يسلفن تفكيره ويشّله، ولكن دون

جدوى فالخواء يفضي إلى آخر أكثر كثافة، وحين أعيته الحيلة، أو توقف تفكيره في البحث عن الحل، استظل غيمة التشوش التي تمطر فوق وجدانه زخات من الضياع والخوف من الآتي المتمثّل بكائن يحمل جسداً غابت عنه الذاكرة، يقضقض أيامه وسنينه في البحث عنها، يشعر إن قواه تنسل من بدنه فتخور عزيمته ويستلقي على ظهره، يشعر أن الرمل يلتصق بظهره فتلسعه حرارة كاوية، يرفع رأسه مشكلا مع جسده الراكن على الرمل كقشة لا معنى لها زاوية قائمة ويقذف نظرة عجلى متسائلة فيكتشف عري صدره وبطنه وبنطاله الممزق عند الركبة اليمنى تثلمه بقع من دم متخثر في أرجاء شائهة منه، يهمس لنفسه وهو يلقي رأسه ثانية على الرمل...

– ما الذي أتى بي إلى هنا...؟

يرتحل ثانية إلى عالم الذاكرة، يفلح في اقتحام غيوم الضباب الواحدة تلو الأخرى فتتهاوم في أعطافها صور لا يربطها رابط ولكنها تبدو مثل سالب رديء لصور مصّور فوتوغرافي أفني سنينه في توثيق واقعه اليومي إلى ذكريات، فتدخل ذاكرته صندوقها العجيب لتجلو أمامها سوالب صور تتراءى أمامه ذكريات بعيدة مشّوشة: بيت...

بيت يغلفه الغموض على أطراف الغابة، غابة أشجارها باسقة، أهي أشجار الصنوبر أم السنديان أم النخيل، وامرأة... امرأة متلفعة بالضباب والغبار، أهي عجوز أم يافعة، متزوجة أم صبية، تحمل إناءً مملوءاً بالحب، أهو الذرة أم الشعير أم فتات الخبز، تغرف منه بكفها ثم تلقيه إلى أسراب الوز والبط والدجاج والديك الرومي وغيمة متساقطة من الحساسين والقبرات والحمائم غير الداجنة، وطفل تشوشه الذاكرة بحيث لا يعرف إن كان ولداً أم بنتاً يركض خلف كلب سلوقي يتقافز فرحاً وغبطةً ويقعي إزاء حصان مربوط في جذع شجرة يحمحم ويزنخر كلما شمّ أو رأى شاباً يقطع أفنان الأشجار المتيبسة قرب بئر يركن بجانبها دلو قديم.... وتتشوش الرؤية ثم تختفي حين تكوي عينيه حرقة لاسعة جراء تطاير ذرات الرمل الرامضة إلى وجهه، يتساءل متجاهلاً الألم...

– من هؤلاء...؟

يحاول أن ينهض جسده، يعجز... يطرح تساؤلا على نفسه.

– لم أنا متعب لهذا الحد...؟

يرفع سبابته ويحك أنفه، يتحسّس شفتيه المتيبستين

كشقوق مفتوحة لأرض ممحلة خنقها الظمأ فتحولت إلى أخاديد موات تنتظر القطر أو الغيث أو السيل لتروي ظمأها لفترة وجيزة ومن ثم فليحل التصّحر أو الطوفان... تستدعيه جمجمته للولوج إلى صندوق المصور الفوتوغرافي الشائب، يتملى تفاصيله بإمعان، انه يشبهه كثيرا، ولكن السنين قد تركت فيه إبداعها فحصدت شعره الأسود وحولت هامته إلى صحراء مديدة تنتشر في بعض جوانبها شجيرات الصبير تعبث بها الريح أنى ما شاءت، وعيناه سجينتا نظارات طبية سميكة تركتها إحدى ماسكاتها فاستعاض عنها بمطاط أسود يحصر صلمة أذنه المشعرة بشدة، وفي رقبته حبال لحمية تعزف لحن الزمن الذي يجعل كل من يسمعه يشيخ باستثنائه هو فهو دائم الشبوة، لمح المصور يبتسم عن فم نصف أسنانه مقلوع والنصف الآخر منخور، وبصوت موسيقي يقول.

– هيا... سأريك صورتك الأخيرة.

ويخرج من فتحة جانبية من الصندوق صوراً يضعها في سطل به ماء أصفر ثم يدخل كفه ويرج الصور حتى يخرجها أخيرا ويعلقها بقراصات على السيقان الطويلة التي يقف عليها الصندوق، يبتسم بغموض يستشف منه بعض

التفاؤل ثم يلملم عدته، يضع الصندوق الخشبي على كتفه ويتنكب بكتفه الآخر الحامل الخشبي ويحمل بيده الطليقة السطل المليء بماء تفوح منه رائحة حامضية ثم يتسلم الطريق صاعداً نحو الأفق وقبل أن يغيب يلتفت، يبتسم، ثم يستمر وكفاه تلقيان صوراً تتطاير نحوي الواحدة إثر الأخرى... التقطها ثم رتبها وحاول أن يسلسها فتتجلي بعض الأشياء بشكل مشوّش:

غزالة مذعورة، روحها تسابق سيقانها التي تجلد الأعشاب والأدغال والشجيرات الغضة الطفلة والرغوة الكثيفة تتشكّل في زاويتي فمها وتتماهى مع الدموع المنسابة من العينين الساحرتين، وفي جريها المحموم تحاول أن تبتعد عن سنابك الفرس التي تلاحقها والملبية لصراخ رجل يمتطي صهوتها ويحثها على اقتناص الطريدة، وفي نهاية الصورة كلب سلوقي يحاول الموازنة في المسافة المحصورة بين أقدامه وذيل الغزالة... صور تتالى في ذاكرته تجعل المقارنة بين الفارس الذي يتّقنع كيانه ووجهه المصلوب على الصور المفترضة أمام رؤاه المضبّبة شيئا أشبه بالحلم، وكذلك وجه المقاربة أو التذكير أو التشبيه بين عيني الغزالة وعيني زوجته المنتظرة، قابل للتحّقق كون

الاثنتين، الغزالة والزوجة، تحملان نفس السمات، وثمة في إطار الصورة مقاربة أخرى أقل جنوحاً للخيال ولكنها ليست صعبة التحقّق سيما وأن السعي لتحقيقها جار في الواقع في الاثنين معاً... فالأول الرشيق الرهوان يحلم بعلف من دريس الشعير والتبن، والثاني الرشيق السلوقي يحلم بعظمة هذا الفخذ الشهي الراكض أمامه بتلك السرعة الخارقة التي أنهكته وهو الخبير بفنون المطاردة وجعلته يفكر في الكف عن المطاردة، بيد أن عظمة الفخذ الشهية للغزالة شحنته بقوة مضاعفة للانقضاض على الجسد الجميل وأسره بين فكيه....

انتهت الصور وتوضح الموقف ماعدا النهاية، ثمة صورة ناقصة تكشف نتيجة ما حدث، فهو لا يتذكر كيف اختفت الغزالة والحصان والسلوقي والغابة والطموح، هو... فقط صحا على نفسه وجسده أسير الشمس والرمال والتيه والعطش والوهن والخوف، هو وحده بقي يعالج سكرات الضياع معانقاً الدبق والرمضاء وانتظار المجهول...

عيناه بندولان يتراقصان بإيقاع رتيب ويحتويان المدى المترامي الأزرق الصافي كعيني طفل وليد أو عيني الديك، تحاولان أن تبحثان عن غيمة، أيا كان لونها، بيضاء،

رصاصية، سوداء، ولكن ليس ثمة غير سماء ذات ازرقاق حاد، وتذكر طرفة رواها أحد أصدقاءه عن الغيم والمطر وهما يحتسيان الحليب الساخن في المقهى فأفلتت الضحكة من شفتيه عفواً... صافية، جهراء، واهنة، وهو يستنبط غموض النفس الإنسانية وشطحات الروح، فبوضعه الفريد والمأساوي هذا، كيف يعّن لتفكيره التحليق إلى هذه الآماد، ما يحصل له الآن من ابتكار الأخيّلة، مصور شائب، مقهى، يمكن أن يحلم المرء بكل هذا وأكثر لو تهيأت له كل وسائل الراحة من مأكل ومشرب وهناء واسترخاء و... ماء، وهاجمته لظى الفرن الذي يفري أمعاءه والذي ينتظر رشفة أو حتى قطرة من ماء، صرخ بقوى واهنة.

- ماء.

وبعد أن هصر أسفل بطنه.

- يفريني الظمأ.

فيستجيب لصرخاته كائن ما كان يتصور أن يراه في حياته على حقيقته بهذا الجلاء وهذا الوضوح، كيف لم يعاينه حين حدق في السماء رغم أن الفضاء ملعبه ومرصده، ومنها تنطلق صولاته الناجحة، يقترب منه

ببطء، ربما يجتهد بعينيه الصفراوين الحادتين، أن يتيقن من حقيقة هذا الرجل نصف العاري الذي يلتحم بالرمل، هل هو حي أم ميت؟... مخالبه الحادة كنصل الحربة تنغرز في الرمل ثم ترتفع نافضة عنها ذرات الرمل الجريحة وبدنه العملاق يتحرك نحو الأمام استجابة لتعاقب الرجلين العضلتين النافرتين المريشّتين مثل فرسان القرون الغابرة، يسمع نبرة المصور الهازئة.

نهاية رومانطيقية منطقية غاية في الجمال.

تأمله بعينين لا تستكينان، يقف على رأسه، يصير مظلةً تطرد أسياخ الشمس عنه، يتمنى أن يكون هذا الشيء حجراً من ريش أو عموداً من ملح أو يقطينةً تسّور وتسّقف جسده الوسنان الباحث عن الراحة، راحة آنية أم أبدية، لا فرق، لا أهمية لماهيتها البتة، المهم أن تطفئ ظمأه، إلى الدعة، أو الارتواء من الماء، أو الطعام، أو أي شيء ينسيه الشواظ الذي يشوي جسده وروحه... أحلامه التي شيّدها في وجدانه خلال اللحظات الفائتة تقوضت بغتة حالما تحركت المخالب ترسم في خطاها الواثقة دائرة حول جسمه، تابع حركته بلا إحساس، فليس خائفاً أو متوجساً، بل أن بلادة وعدم اكتراث شّعا من كيانه وبات

موقنا بأن الأمر لا يعنيه البتة، توقف الطائر خلف رأسه، كاد منقاره الحاد المعقوف يلامس جبينه وحدق في تفاصيل وجهه بعينيه الصفرايين، تصّور هذا الاصفرار بحراً يقتلعه من أوتاده الرملية وتضمه إلى وسائد من ماء رغوي بارد تميس فوقه النوارس وغيوم متزاحمة تتوالد من أرحامها جيش من الأنهار، رفع أنامله ومدها نحو المنقار المتراجع ولهج...

- ماء..

رفع الطير رأسه وتملى الكف الممدودة ونهض الجسد العملاق فارشاً جناحيه الهائلين مشّكلاً فيئاً دائرياً لوهلة خاطفة في المدى الذي يهرصه ثم ارتفع محلّقا في شعاف السماء.

- ماذا يفعل النسر في الصحراء..؟

وبعد برهة.

- لم لم يقطعّني ويلتهمني...؟

ويتراءى له المصور الشائب وفي يده صورة مشوشة، يتملى تفاصيلها المغلفة بالضباب وقشرة الذاكرة المشّوشة، يلمح جسداً أشبه بالغزال وكتلتين سوداوتين غير واضحتي المعالم ولكن تبدوان كحيوانين، ربما جمل

أو حصان، كلب أو جحش، حاول أن يتقصى التفاصيل ولكن المصور يضعها في جيب معطفه ويتنكب الدرب خارج أبعاد الذاكرة.

أجال عينين مرمدتين في الأرجاء، رمل، رمل... ولا شيء سوى الرمل المجّبب بالصهد الثاوي، وعراء لا يحّده حدود إلاّ من كثبان رملية بعيدة، وهطل عليه سؤال.

– لم لا تقترض الصحراء من الواحات مياهها..؟

وضحك لهذا الخاطر الغريب وتساءل.

– هل أنا أهذي....؟!!

..... وبوغت بهم يملئون الفضاء بطيرانهم الرشيق، أجساد أربعة يشقّون عباب الفضاء بأجسادهم المغزلية العملاقة الرشيقة وأجنحتهم الممدودة على سعتها، يرسمون في السماء دربا مستقيما مثل موكب جنائزي، وعندما استقروا فوقه انحدروا بأجنحة لا تريم ورؤوس محنية نحو الأسفل وقوادم معقوفة ناصلة حادة وكأنها دواليب طائرات ممدودة تحت الصدور والبطون، فغر فاه وقال لنفسه.

– ما أحّد أظفارهم...؟!!!

ثم إستتلى بنبرة تهكمية.

– يا له من نسر ناكر لذاته، أبت نفسه النقية أن تستحوذ على الفريسة لوحده فدعى أقرانه وبطيب خاطر لوليمة دسمة.

توزعت النسور حول جسده، ... ينادي خلّه، المصور الشيخ فيلبى الآخر النداء على الفور، يتوسل إليه.

– أرني الصورة الأخيرة..؟

يبتسم الآخر ولم ينبس ببنت شفة.

وقف إثنان عند قدميه والآخران عند كتفيه، هيأ نفسه ذبيحةً، أغمض عينيه يترقب الآتي الرهيب، ويرى ابتسامة المصور تتسع وفي يده الصورة، يهمس برجاء.

– أرجوك...؟؟

يضع الآخر سبابته غلى شفتيه، وعيناه تبتسمان سخريةً أو شماتةً، ثم يهّز رأسه يمنة ويسرة، ويدس الصورة مقلوبة فوق الصندوق الخشبي.

– النهاية؟!! أتوسل إليك...

يفرد الآخر ذراعيه ثم يستدير ويغيب عن ناظريه وابتسامته الغامضة تنساح مغطية الصحراء والسماء والأفق، .... وصحا على نفسه وهو يطير في السماء، لم يصدق عينيه السابحتين بلجاحة وسعير لا يستكينان حين

لمح أمام مد بصره نسران يمسكان بمخالبهما بقايا قميصه وعيناهما تستقرآن عينيه، لمح فيهما إمارات الحكمة والعطف والألفة، رفع رأسه وحدق في قدميه، فوجد نفسه مربعا بأربعة زوايا يقبض على كل منها نسر يسعى مع رفاقه في طيران متناغم حثيث متمهل والعيون شاخصة بخط مستقيم صوب هدف مشترك، لا يدري من أين أتته النبرة التهكمية هذه لأول مرة في حياته حين وجد نفسه يقول.

– لا بد أنهم يطيرون نحو الأعشاش حيث الفراخ الجائعة.

وغّب فترة تأمل.

– ترى هل ستكون قسمة ضيزي..؟!! أم أنكم ستختلفون كما نحن البشر، وسيستأثر أحدكم بعد صراع دامٍ بي وليمة كاملة غير منقوصة، أم سيتفق إثنان منكما على تحريم الاثنين الآخرين، أم أن أحدكم سيستأسد على الآخرين ويظفر بالغنيمة لوحده.

وشعر أن البساط الطائر المكّون من هذا التشكيل غير المعقول يهبط بتمهل ورفق، أغمض طرفه موقنا نفسه بقبول ما سيأتي، فيزوره المصور هابطاً من الأفق وفي وجهه

بسمة لم يستشف سجاياها، يهمس.

– الصورة الأخيرة..؟

يهز المصور رأسه دلالة الرفض، ... فتح عينيه ثانية، تهيأ له ونظرات النسر الأيمن تعانق روحه، أن العينين... عينا النسر والمصور متشابهتان بل متطابقتان.

– ما الذي يجري..؟؟

قامت النسور الأربعة بحركة مشتركة موحدة هبط على أثرها هبوطا سريعا، فابتهل إلى الرب أن يمنحه ميتة سريعة خاطفة دون ألم، وانغمر..... في الماء، اصطدمت قدماه الواهنتان بالقعر، دق أقدامه في القاع وصعد نحو الأعلى، إستوى فوق سطح الماء، صار كيانه كلّه فماً مفتوحاً يعّب جرعات الماء، فسقطت شآبيب المطر تملأ الأخاديد المشرعة للأرض الممحلة داخله، زغردت حواسه وامتلأت خلاياه الفارغة بالماء، غاص ثانية في طيات هذا الأزرق الحبيب النفيس وطاف ثانية، همس بارتواء وقناعة تامة.

– الآن اقتسموني ذبيحة مكتملة.

وجاس عينيه مستقصياً أبعاد المكان، على مد البصر وجد حدود الواحة التي تخّرمها أشجار النخيل من كل

حدودها، واحة من مياهٍ سلسبيل، متفردة كنقطة بيضاء صافية وسط قماشة كالحة، والطيور تفر طائرة مذعورة نحو الصحراء... والنسور الأربعة على الأشجار تقطف بمناقيرها البلح الطازج من عثوقه الذهبية وتلقيه على جذاذات السيقان المحّززة الشاهقة، فيتدحرج قسم منه وينغمر في الماء، فيما الباقي يشّكل سجادة من ذهب مصفّى، .... ومن ثم وبتوقيت واحد طارت النسور الأربعة وشكلّت سهماً، نهايته فوق الواحة، ومقدمته في عمق الصحراء، ... واختفت، واختفى المصور الفوتوغرافي في نفس الأفق، بعد أن منحه الصورة الأخيرة.

الأقاصي

شــيوخ القريــة المحنكــون المعجونــون بالحيــاة كــانوا يجزمون جنونه ويلهجون وهـم يهجعون أبدانهم الوسنانة في فيء البيـوت القديمـة لقريتنـا المعزولـة والغارقـة في مسـتنقع النسيان.

-انه مجنون بالتأكيد... ولكنه مسالم.

ويأخذهم الصمت لفترة لا تسمع فيها إلاّ أنفاسهم وهي تتموسـق مـع حبـات السـبح الكهـرب المتهاطلـة مـن الخـط الضـيق المتشـكل بـين الإبهـام والسـبابة وأناملـهم الحبليـة تمسـد عثـانينهم المدببـة وعيـونهم اللائطـة تحـت الحواجـب الكثـة المشـعرة، تتأسـف علـى هـذه الفتـوة وهـي تتسـربل بالجنون.

***

نسـاء القريـة المتزوجـات، اليافعـات منهن والعجـائز، في غـدوهن ورواحهـن إلى شـاطئ النهـر كـن يقـذفن مـن وراء سواعدهـن المحزّمة بالأساور والمتشابكة مع الجرار الفارغة

أو المليئة بالماء، نظراتهن الشفوقة على فتى القرية الغريب الصموت وهو يقتعد أبداً دكته الطينية الأزلية على يمين باب بيته الخشبي المتقوض والمرّتق وهو يضم بين جوانحه حوشاً وحديقة وغرفاً يعشّش فيها الصمت والغموض المتموسق مع همس الأشجار وشدو الأطيار.

كن يمصمصن شفاههن ويتهامسن بأسى وتعاطف حقيقي.

-كيف لا يجّن هذا المسكين وهو وحيد منذ سنين.

وتتذكر العجائز منهن ذلك الصباح البعيد، حين عبرت إلى قريتهم امرأة آتية من أصقاع مجهولة وفي أطراف عبائتها يتمسك صبي غاية في الجمال، ولكنه لا يتكلم، بل ينظر إلى الآخرين بنظرة تجعلهم يغضون أهدابهم مرغمين أمام هذا الجمال الباذخ لتينك العينين.

✷✷✷

صبايا القرية، الجميلات والقبيحات على حد سواء كن يرمقن وسامته الساحرة ويتملين منجذبات فاغرات الأفواه هذا الدفق الباذخ من فتوة رجولية مبكرة، وهذا الألق البارق من وسامة لا تحدها أية وسامة في سائر شباب

القرية... وخصوصاً سحر عينيه، وبشرته البيضاء، وشعره الأشقر، ويهمسن لأنفسهن بنبرة لا تستشفها إلاّ الخوادر حسب.

- آه... لو لم يكن به مّس من الجنون.

✷✷✷

وكنا نحن الأولاد الذين وطئوا مرحلة المراهقة أم على أعتابها، نألفه ويألفنا، وكنا نرتاح له وهو يراقبنا بحب وحميمية ونحن نلعب الكرة في الساحة التي تنتهي بفم النهر المتمثل بالناعور وهو يرسل شجوه الحزين الذي يترجم شكواه بقصاصه الشبيه بقصاص ذلك العفريت الذي حاول أن يسرق النار من كبير العفاريت ليعطيه لإنسان مقرور ليتدفأ ويطهو طعامه ليطعم آلاف الأفواه الجائعة والذي حكم عليه بحمل صخرة ليصعد بها على ظهره لقمة جبل شاهق وعند الفشل كان يعاود الكرة.... هكذا كان يحكي حكواتي القرية للرجال الملتمين في المقهى ليستقبل بالاستخفاف منهم وكنا نحن اللائذين في دفء عباءاتهم نستلّذ بالحكايا... هكذا كان حال ناعورنا.... الشكوى والأنين.

وكنا أحيانا نقنع فتي القرية الصموت أن يلعب معنا فكان يلبي طلبنا ويلعب بأقدام ماهرة مصطخبة تتعاكس مع فمه المطبق أبدا. وعندما يصافح الغروب كفة الليل القادم كان يشّيعنا بعينيه الجميلتين ونحن نلملم شقوتنا ونزقنا وعراكنا البريء المؤجل ونصطحبها إلى بيوتنا، وعيناه تعوضان ما يعجز عن قوله فمه المطبق. كان فتى القرية المجنون، الأخرس، الوحيد، الفاتن، والصديق الوفي لنا يحرص أن يصل كل إلى بيته، ومن ثم ألاحظه، لكون بيتنا لصق بيته، يمشى بتثاقل ويلّج داره ليتماهى مع صمت الغرف والحديقة والأطيار.

✷✷✷

والشفق يتهيأ للمغادرة ليّسلم أمره ليوم صاح كنت أقف على سطح دارنا أتأمل قرص الشمس الناهض من مضجعه في الأفق الشرقي المفروش بالرباب، وروحي الغضة المحلقة نحو ربيعها الخامس عشر تتنسم الإشراقات الأولى لليوم القادم بكل ما يختزنة من دفء نابض من السماء العالية ومن سماء جديدة تشرق في جسدي وتجعله يصطلي برمضاء الرجولة المبكرة التي تقدد أيامي بأسياخ الترقب

والقلق، ... تناهى إلى مسامعي أصوات متواشجة تعطي للنبرة الأخيرة نغمة يتداخل فيها الشدو والزقزقة والهديل والنعيب والنواح في احتفال فريد لم أسمع مثيلاً له من قبل، والذي سمعته من خلال فواصل الصمت القصير نبرةً آدمية جلية تلقي كلمات متسارعة تتخللها فواصل من أنغام الطيور المختلفة....، تلفت حولي، لاشيء استثنائي، فالحساسين في الخلاء المترامي لحديقة دارنا ملتمة تتقافز بحبور فوق العشب أو في الطوار تلتقط بقايا الخبز، أو على حافة الحوض تروي ظمأ هجوع ليلة طويلة، والنواعير تبكي تعب ليلة أخرى، والأشجار تتمطى نافضة عنها الكرى، والفلاحون يحملون مساحيهم وفؤوسهم وعيونهم وأقدامهم شاخصة نحو الحقول، ... تقمّصت دور الفأر وقّومت أذنّي، وصار جسدي كله لاقطة كبيرة حساسة، أو كلب سلوقي يتشمم الأثر بالأذنين، لم أخطئ الإشارة التي التقطتها مجساتي حين اكتشفت مذهولاً أن الأصوات تأتي من خلف الحائط، وتحديدا من دار الأخرس. جثوت على الأرض ومشيت على أربعة وألصقت عيني أبحث في السياج الفاصل بيننا عن ثقب أرى فيه عجائب ما أسمع، وحين اهتديت انفتح أمامي على حين

غرة عالم ساحر غريب وغير معقول...

حديقة غنّاء واسعة تتوزعها أشجار الخوخ والتين والرمان والزيتون تسبح في شلالٍ من أشعة الشمس الفتية، وصديقي... المجنون، الأخرس يقف في الفناء المفروش بالحصى المطل على حزام من الآس يفصل الحديقة عن الفناء، وقد أفرد ذراعية ووجهه يرتديه السنا وتنتشر من هامته أسياخ من الضياء البارق لتصطدم بالجدران الطينية لترتد مخيمة فوق كراديس الأطيار الموزعة حوله كخلايا النحل وبنسق لا يفهمه إلاّ مجمع الطير فقط، فالحساسين في الصف الأول يتبعهم الحمام الأليف منه والبري، ثم البط البري المهاجر وخلفه الدّراج والوّز والسمان وفوق قمم الأشجار تجثم أصناف الجوارح وكأنها في ترتيبها المرسوم بدقة متناهية كرّست نفسها سقفا يحمي الطير من ...ممن...؟؟! ومخبول القرية الأخرس يطفر من عينية الرائعتين فرح لا محدود ويمد ذراعيه بخط مستقيم ثم يرسم بهما حلقة دائرية حول الكردوس المتراص أمامه فيلف الجمع صمت آسر، فتخرج الكلمات من فم أخرس قريتنا كشلال جبلي هادر يغسل أدران الوهم الذي تغلغل في عقولنا ويقيننا كل هذه الفترة الطويلة، فقد كان

الفتي يتحدث بلغة بني آدم تارة وبلغة الطير تارة أخرى، والعيون الوجلة والمتهيبة تنظر إليه بتوقير واحترام وكان حين ينتهي من لازمة معينة تختلط أصواتها ببعض في نغمة نبهتني إليها قبل هنيهة والتي جعلتني أكتشف هذه القارة البكر التي يدرج فيها الألفة والوئام والحب، الحب المستحيل.

✷✷✷

كنت جنب الناعور أجلس وأفكر فيما رأيت هذا الفجر حين سمعت خطوات رياضية تقترب مني، حسبته في البداية أحد أقراني فلم أعر له أهمية. سمعت صوتا اكتشفت نبراته هذا الصباح ولا يمكن أن أنساه.

-أتمانع لو جلست؟

حاولت أن أتصنع الدهشة والذهول ولكنه حسم الأمر مباشرة عندما قال.

-أنت تعرف سري.

حاولت أن أتغابى فسألته.

-أي سر..؟

-لغة التخاطب بيني وبين الطير.

-أنا...أنا ...!!!

-أرجوك لا تنكر.

ثم قال بودٍ دافق.

-أنا لا ألومك مطلقاً... لو كنت مكانك لفعلت نفس الأمر.

وبعد فترة صمت أكمل.

-الفضول... أو حب الاستطلاع .

ثم بنبرة غاضبة.

-الأنا الدونية.

-أنا جد آسف، لم أكن متعمدا... صدّقني.

لانت ملامحه وارتسمت على محياه طيف ابتسامة ثم تكلم بنبرة هادئة ودودة.

-أنت شاب طيب.

شجعتني إشارته اللطيفة لكي أسأله.

-لم هربت من الواقع؟

-أنا لم أهرب منه، بل هو الذي فعل.

-وتمترست بقيود الصمت؟

-لكي أحّصن نفسي ضد الأنانية.

-وهربت نحو عالم الطير؟

-أنه عالم نقي ونظيف، على النقيض من عالم البشر.

وقبل أن أتكلم قال بصوت خفيض كمن يكّلم نفسه.

-الناس في القرية حسموا أمري وحكموا بجنوني، خصوصاً حين كانوا يرونني أرفع رأسي إلى أفاريز البيوت أو حبال الغسيل في الأسطح وأهمهم مع الطيور، جاهلين أنني أتكلم لغة الطير.

-كيف تعلمت هذه اللغة؟

تجاهل سؤالي واستطرد.

-لذا قررت أن أذهب إلى الأقاصي، إلى ممالك الطير.

رفعت رأسي، كان الليل حسب يسامرني ولا أثر لأحد. هتفت

-أين ذهبت؟

سمعت صوته وهو ينأى بعيدا به رنة عجيبة وكأنه يأتي من الغيب.

-إلى الأقاصي.

ليل ونهر ونواعير وريح خفيفة وقرية ساهرة، هو كل ما احتوته ذاكرتي المشوشة وهي تسعى صاعدة نحو فم الزقاق.

✷ ✷ ✷

في الإصباحات القادمة لم ير أناس القرية أي أثر لمجنونها وابتعدت التوقعات بمقتله من قبل لصوص، سيما عندما فتشوا بيته غرفة غرفة فلم يجدوا أي أثر لسرقة أو قتل، فأقتنع الناس أن المجنون قد هجر القرية ... إلاّ أنا فقد تيقنت أنه ذهب هناك، إلى الأقاصي.

السيرة الذاتية

هيثم بهنام بردى

قاص وروائي وكاتب أدب طفل

الاسم الكامل: هيثم بهنان جرجيس بردى.

- ولد في العراق/ عام ١٩٥٣.
- عضو اتحاد الأدباء العراقيين.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- عضو نقابة الفنانين العراقيين.
- عضو فخري مدى الحياة في دار نعمان للثقافة اللبنانية.
- رئيس تحرير مجلة إنانا التي تعنى بشأن المرأة.

حضر وشارك في مهرجانات وملتقيات عديدة أبرزها:

- الندوة العربية الأولى للقصة الشابة التي أقامتها مجلة الطليعة الأدبية في بغداد عام ١٩٨٠.
- ملتقى القصة العراقية في بغداد عام ١٩٩٥.
- ندوة الرواية العربية في بغداد عام ٢٠٠٢.
- الملتقى الثالث للقصة القصيرة جداً في حلب عام ٢٠٠٥.
- الملتقى الرابع للقصة العراقية (ملتقى د.علي جواد الطاهر) في بغداد ٢٠٠٨.

- مهرجان المربد ولعدة دورات.
- مهرجان الجواهري عام ٢٠١٠ وعام ٢٠١٢.
- مؤتمر ثقافة الأطفال الدولي الأول في بغداد عام ٢٠١٠.
- معرض إيطاليا الدولي للكتاب في إيطاليا (مدينة تورينو) عام ٢٠١٤، ألقى فيها محاضرة في "القاعة الزرقاء" عن الأدب السردي العراقي الحديث.

أصدر الكتب التالية:

١. الغرفة ٢١٣/ رواية – مطبعة أسعد – بغداد١٩٨٧.
٢. حب مع وقف التنفيذ/ قصص قصيرة جداً – مطبعة شفيق– بغداد ١٩٨٩.
٣. الليلة الثانية بعد الألف/ قصص قصيرة جداً – منشورات مجلة نون – الموصل ١٩٩٥.
٤. عزلة أنكيدو/ قصص قصيرة جداً – مطبعة نينوى – بغداد ٢٠٠٠.
٥. الوصية/ قصص قصيرة – دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة – بغداد ٢٠٠٢.
٦. الذي رأى الأعماق كلها/ كتاب انثيالات – مطبعة ميديا – أربيل ٢٠٠٧.
٧. مار بهنام وأخته سارة/ رواية – مركز أكد للطباعة

والإعلان – عنكاوا – أربيل ٢٠٠٧.

٨. قديسو حدياب/ رواية – مركز أكد للطباعة والإعلان – عنكاوا – أربيل ٢٠٠٨.

٩. صدرت باللغة السريانية عن دار (منارة) في أربيل عام ٢٠١١ ترجمة كوركيس نباتي.

١٠. تليباثي/ قصص قصيرة – دار نعمان للثقافة– بيروت ٢٠٠٨. صدرت طبعتها الثانية عن دار الينابيع بدمشق عام ٢٠١٠.

١١. التماهي/ قصص قصيرة جداً– دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة – بغداد ٢٠٠٨.

١٢. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية/ إعداد وتقديم – إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية – أربيل ٢٠٠٩. صدرت طبعتها الثانية عن دار تموز للطباعة والنشر – دمشق ٢٠١٢. صدرت ترجمتها إلى اللغة الكوردية من قبل أحمد محمد إسماعيل وصدرت عن المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية عام ٢٠١٢.

١٣. القصة القصيرة جداً في العراق/ إعداد وتقديم– المديرية العامة لتربية نينوى– الموصل ٢٠١٠.

– صدرت طبعتها الثانية عن دار الشؤون الثقافية - وزارة

الثقافة العراقية عام ٢٠١٥.

١٤. القصة القصيرة جداً/ الأعمال القصصية ١٩٨٩– ٢٠٠٨ / دار رند للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق ٢٠١١.

١٥. نهر ذو لحية بيضاء/ مجموعة قصصية/ دار رند للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق ٢٠١١.

١٦. سركون بولص عنقاء الشعر العراقي الحديث/ إعداد وتقديم– إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية_ أربيل ٢٠١١ .

١٧. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية القصيرة جداً/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق ٢٠١٢.

١٨. روائيون عراقيون سريان في مسيرة الرواية العراقية/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق ٢٠١٢.

١٩. أرض من عسل/ مجموعة قصصية/ دار الحوار للنشر والتوزيع– اللاذقية، سوريا ٢٠١٢.

٢٠. كتّاب أدب طفل عراقيون سريان في مسيرة أدب الطفل العراقي/ مطبعة شفيق– بغداد ٢٠١٣.

له في أدب الطفل الإصدارات التالية:

١. الحكيمة والصياد/ مسرحية للفتيان/ مطبعة بيريفان– أربيل ,٢٠٠٧

٢. مع الجاحظ على بساط الريح/ سيرة قصصية للفتيان– دار رند للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق ,٢٠١٠

٣. العشبة/ مسرحية للفتيان/ مطبعة الديار– الموصل ٢٠١٣.

كتب صدرت عن أدبه:

١. حبة الخردل/ دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً / إعداد وتقديم خالص ايشوع بربر/ منشورات اتحاد الأدباء السريان– الموصل ٢٠٠٥. صدرت طبعته الثانية عن دار رند للطباعة والنشر والتوزيع في سوريا عام ٢٠١٠.

٢. شعرية المكان في القصة القصيرة جداً– قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ د. نبهان حسون السعدون/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق٢٠١٢.

٣. تجليات الفضاء السردي– قراءة في سرديات هيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم: أ. د محمد صابر عبيد/ دار تموز للطبعة والنشر والتوزيع – دمشق٢٠١٢.

٤. أسماء في ذاكرة المدينة، هيثم بهنام بردى/ إعداد

وتقديم وحوار نمرود قاشا/ مطبعة شفيق– بغداد ٢٠١٢.

٥. شباط ما زال بعيداً، دراسات نقدية في المجموعة القصصية أرض من عسل لهيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم: جوزيف حنا يشوع/ مطبعة الديار– الموصل ٢٠١٢.

٦. الكون القصصي، تجليات السرد وآليات التمظهر، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ محمد إبراهيم الجميلي/ مطبعة الديار– الموصل ٢٠١٣.

٧. الثريا، دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً/ إعداد وتقديم: خالص ايشوع بربر/ مطبعة شفيق -بغداد ٢٠١٤.

٨. جماليات تشكيل الوصف في القصة القصيرة، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ د. نبهان حسون السعدون/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع -دمشق ٢٠١٤.

٩. المهيمنات القرائية وفاعلية التشكيل السردي في مجموعة نهر ذو لحية بيضاء/ إعداد وتقديم ومشاركة: الدكتور خليل شكري هياس/ دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع -دمشق ٢٠١٤.

دراسات أكاديمية عن أدبه:

- حاز الأستاذ محمد إبراهيم الجميلي على شهادة الماجستير بدرجة "جيد جداً" من كلية التربية الأساسية / جامعة الموصل بتأريخ ٢٠١٣/٣/٣ عن رسالته الموسومة (السرد في قصص هيثم بهنام بردى القصيرة).
- حازت الأستاذة نادية نزهة سليمان على شهادة الماجستير بدرجة "امتياز" من كلية التربية للبنات/ جامعة تكريت، بتاريخ ١٧/ ٢/ ٢٠١٤ عن رسالتها الموسومة: (جماليات القصة القصيرة جداً/ هيثم بهنام بردى مثالاً).
- حاز الأستاذ همام حازم عطا على شهادة الماجستير بدرجة "جيد جداً عالي" من كلية الآداب/ جامعة تكريت، بتاريخ ٢٠١٥/١/١١ عن رسالته الموسومة (العتبات النصية في سرد هيثم بهنام بردى القصصي).

الجوائز:

- حائز على جائزة ناجي نعمان الأدبية اللبنانية لعام ٢٠٠٦.
- حائز على الجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة العراقية عام ٢٠٠٦ عن قصته القصيرة "النبض الأبدي".
- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة وزارة الثقافة

لمسابقة أدب الأطفال/ دار ثقافة الأطفال/ جائزة (عزي الوهاب للنص المسرحي) عام ٢٠١٠ عن مسرحيته الموسومة (العشبة).

- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة القصة القصيرة التي أقامها قصر الثقافة والفنون في محافظة صلاح الدين عن قصته الموسومة (الرسالة).

ورد اسمه:

- في كتاب (موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين– الجزء الثالث– صفحة ٢٨١) الصادر عن دار الشؤون الثقافية العامة عام ١٩٩٨ لمؤلفه الأستاذ حميد المطبعي.
- في كتاب (موسوعة أعلام الموصل في القرن العشرين – صفحة ٦٠٠) الصادر عن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة الموصل – مركز دراسات الموصل– عام ٢٠٠٧ ، لمؤلفة الأستاذ الدكتور عمر الطالب.

الترجمة:

- ترجمت بعض قصصه إلى اللغة الإنكليزية والهولندية والفرنسية والإيطالية.

- كُتبت عن (تليباثي) العديد من البحوث والدراسات النقدية التي أُلقيت في الحلقات الدراسية والملتقيات والمهرجانات، ونُشرت في المجلات المحكمة وذات الإختصاص، ويعكف الدكتور خليل شكري هياس على جمعها وتبويبها وتقديمها، بغية إصدارها في كتاب.
- من الأساتذة النقاد والأكاديميين الذين نشروا بحوثهم ودراساتهم عنها: الدكتور محمد صابر عبيد، الدكتور خليل شكري هياس، الدكتور فاضل عبود التميمي، الدكتور ثائر العذاري، الدكتور سالم نجم عبدالله، الدكتورة سوسن البياتي، الدكتورة نادية هناوي سعدون، الدكتور مثنى كاظم صادق، الأديب ناجي نعمان، الباحث والناقد ناجح المعموري، الناقد والباحث جاسم عاصي، الناقدة المصرية هناء عبدالهادي، الناقد محمد يونس صالح، القاص بولص آدم، الناقد حسن السلمان.

مقتطفات مما كتب في تليباثي

القاص هيثم بهنام بردى ينتمي إلى ريف الموصل (الأطراف)، ويسعى في الكثير من قصصه إلى تمثيل هذه الرؤية الريفية وتشخيصها وإشهار أنموذجها، بوصفها تجلياً من تجليات الفضاء الموصلّي - المكان والإنسان والتاريخ -، ويجتهد في التعبير عن أنموذج المكان/القرية بكل حساسيته وغناه وعمقه الميراث شعبي ومخياله الفانتازي، وصولاً إلى توكيد فعالية الحضور الإنساني العميق عبر أدوات التعبير السردي القصصي.

الدكتور محمد صابر عبيد

* * *

(تليباثي) مجموعة قصصية ثرة لا يمكن لقراءة أولى أن تفك شفراتها المنغرسة في مناطق دلالية وإشارية شتى، تسيجها لغة مائزة مصاغة بقوة المعرفة بخفاياها، ومهندسة هندسة تشكيلية أقل ما يمكن أن يقال عنها: إن مهندسها ضالع في هذا المجال، تأخذك سحرها إلى رسم خيالات عميقة تنهل من الموروث، والواقع المعاش،

والخيال، والأسطورة، والعجائبية، والغرائبية، والفانتازيا، لتفضي في النهاية إلى مغامرة كبيرة تشرع بشراعها السردي إلى الولوج بدينامية حرة إلى كنه الأشياء والموضوعات لتلبسها ثوب السرد المطرز بإحساس مرهف وعميق لمبدع حقيقي هو هيثم بهنام بردى.

الدكتور خليل شكري هياس

* * *

(تليباثي) التي يمكن أن تقرأ قراءات مختلفة محاكمة عصريّة لسوءات الحضارة الجديدة التي جعلت العالم أشبه بقرية كونيّة يتواجد فيها كلّ شيء متوازيا مع فقر (الروح)، وهي تبحث في نهاية النفق عن تخاطر يعيد إليها صفاء الذهن، ومسرات الأساطير التي ما عاد عصرنا قادراً على إنتاجها.

الدكتور فاضل عبود التميمي

* * *

فإذا نظرنا إلى المجموعة على أنها صورة مصغرة للعالم، سنصل إلى المفارقة التي بنيت عليها، فهو عالم ينظر إلى الأفراد كما لو كانوا وحدات بنائية متناظرة من غير أن يكون هناك ما يميز أحدهم عن الآخر، وفي الوقت ذاته يرى كل منهم نفسه مركزا للعالم يعيش الإحباط لأنه يعجز عن حمل محيطه على الانصياع لرغباته. إنها مشكلة إنسان العصر، فقدان الهوية وانفصام الكينونة المتفردة.

الدكتور ثائر العذاري

* * *

نص (تليباثي).. نص مراوغ يختزل مساحات زمنية كثيرة لكنه لا يبوح بها ويوظف تقانات زمنية شفافة قد لا تكتشف في القراءة الأولى له وتحتاج إلى الكثير من الصبر والتأني، فالعنصر الزمني قد تم تذويبه داخل المنطوق السردي، وقد أبرز النص الزمن النفسي وتلاعب به وبين مدى تأثيره في العناصر القصصية، إذ أشار إلى التلاحم العضوي بين المكان والشخصية ومدى تأثير الزمن فيهما وان الشخصية نفسها هي التي أغلقت على نفسها المكان وجعلته مكاناً خيالياً ساحراً معزولاً عن المحيط

الخـارجي وعـن الكـائنـات البشـرية ولا يبـدو فيـه انتظـام للزمن الكوني.

الدكتور سالم نجم عبدالله

* * *

شـخوص قصـص هـذه المجموعـة تعـاني أزمـة تلجأهـا إلى الهرب من واقعها والعيش في عالم آخر، بطل قصة "**تليباثي**" نحات يختزل حياته ويومياته كلها في تحريك تمثال لا يجدي معـه أي شـيء نفعـا، فيلـوذ بصـمته هربـاً مـن الآخـرين، شخصيات قصة "**الملحمة**" تستعيد توازنها من خلال إثبات الذات، ويتمثل ذلك في الصراع بين هو/ الآخر، وهو صراع يشي بعمق سردي لا يمكن الفكاك من أسره، شخصيات قصة "**الصورة الأخيرة**" ترتحل إلى عالم الذاكرة متناسية واقعها المكبل بالأسى والنسور تحلق فوق هذا العالم محاولة منها في صهره والخلاص منه، أما المجنون في قصة "**الأقاصي**" فيمثل ذروة الانقسام الذاتي على ذاته، فيهرب من واقعه إلى عالم الطيور ويمثل دور المجنون في الوقت الذي يغدو فيه احكم الحكماء وأعقلهم.

الدكتورة سوسن البياتي

تعيد قصص هذه المجموعة إلى ذاكرتنا مجموعته القصصية (التماهي) إذ نلمس فيها النفس العجائبي ذاته في التحول والتماهي والاندماج..

ولأن هذه القصص فيها من الفصاحة ودقة الصور الموصوفة وضبابية الثيمات والابتعاد عن الابتذال والمكاشفة، ما يجعلها تصلح مثالاً جيداً للطلبة للقراءة والمطالعة وفي مراحلهم الدراسية كافة ليطلعوا ويتزودوا بلغة فصيحة ولسان مرهف.

الدكتورة نادية هناوي سعدون

* * *

(تليباثي) مجموعة قصصية عمل القاص على رسمها بخيوط تخاطرية تخاطبية ملونة تفرض على القاريء التوقف عندها وتأملها من خلال لغتها الاشراقية الجميلة الملتمة على نفسها المكتسية بالعزلة، بحثا عن اقتناص الذات الضائعة

الدكتور مثنى كاظم صادق

* * *

هيـثم بهنـام بـردى، الصـامد في العـراق، يأسـرنا، في مجموعتـه القصصـية الحاضـرة، في عـوالم مـن الرمزيـة السـهلة، جامعهـا المشـترك خيـال هـو الأقـرب إلى الواقـع، وتخـاطر هـو المحبـب بـين البشـر، وتخاطـب هـو الأصـدق مـع الطـير، وهـو، في ذلـك، وإليـه، عميـق في الأنسـنة، رائـد في الوصف.

الأديب ناجي نعمان

* * *

تفـاجئ قصـة "تلبيـاثي" القـارئ بتوصـيف دقيـق ومرسـوم بمهـارة ليـومئ الى مـا كـان يعيشـه الفنـان مـن قلـق واضـطراب. كـل الموجـودات الـتي أشـار لهـا الاسـتهلال كافية للتوصيف السردي الذي تمكـن من خلالـه القـاص هيـثم بهنـام بـردى مـن وضـع الفنـان في بـؤرة السـرد وجعلـه مركـزاً متمتعـاً بهيمنـة. انشـغال القـاص بدقـة الوصـف وملاحقـة الغرفـة بوصفها مكانـاً لا آخـر غيره في القصـة، مكـان ضـاج بالصـمت والوحـدة والاكتفـاء بالتشـارك مـع المنجزات الفنية الموجودة فيها، يعيش الفنـان أزمتـه القاسـية

التي حاول الهروب منها نحو الفن لإمكانه استيعاب ما كان فيه.

الباحث والناقد ناجح المعموري

* * *

في هذه المجموعة يتشكّل لديه نوع من الشخصيات اختزلت موقفها من خلال نوع من رد فعل تجسد في العزلة الذاتية التي وفرت لها نوعاً من الاستقرار الذاتي، لكنها لم تتخلص من رقابة الآخر. لذا نراها تنصاع لتدخلاته دون التخلي عن موقفها الأساس. كما وأن القاص يحاول أن يُعطي للغته القصصية قوة جديدة بحيث تُشكّل لديه منحا ًنحو السردية الشعرية الخالصة.

الناقد والباحث جاسم عاصي

* * *

تحتاج المجموعة إلي عقلية خاصة لتناولها كفكر ولغة، لأن فكرة التخاطر قد لا تروق للبعض ولكنها تحدث، والأمثلة أمامنا كثيرة فقد تفكر في شخص

فتجده أمامك أو يهاتفك، أو شعور الأم بولدها.

أما بالنسبة للغة فهي دسمة شاعرية، وفي بعض الأحيان تركيبة الجمل لها صفة خاصة أضافت علي جو المجموعة وتم توظيفها بذكاء.

والمجموعة تعكس الحالة النفسية للراوي وكيفية العجر عن تغيير الواقع واللجوء إلي الخيال، وهذه كما ذكرنا إحدى خصائص الأدب العجائبي، والمجموعة تحتاج إلي دراسة أكبر وأعمق لما تحتويه من فلسفة صوفية ونفسية تستحق الاهتمام.

الناقدة المصرية هناء عبدالهادي

* * *

السرد من الأجناس القولية التي تعتمد على الفنون الأخرى، فهو حاضنة لكثير من هذه الفنون التي توظّف في البناء السردي، إذ تشارك الإشارات الفنية القادمة من هذه الفنون إلى السرد الإشارة اللغوية في فرز المعنى الشعري وتوصيله، بما يسهم في تعزيز التشكيل السردي واستكمال مقوّمات بنائه الفني بحسب طبيعة التجربة ورؤيتها، واستناداً إلى هذه العلاقة يمكن النظر إلى إيقاع

الصور المعروفة في القصة على أنها لوحات مرسومة بوساطة الكلمات بدلاً من الخطوط، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الصورة المرسومة بالكلمات تبتعث فينا إيقاع اللون، في حين أنَّ اللوحة المرسومة تضعنا أمام الأشكال والألوان مباشرة في هذا الغمار يدلو القاص هيثم بهنام بردى بدلوه ويُخضع الفضاء التشكيلي لمختبره السردي ليداخل اللوني والإيقاعي والسردي

١. المغامرة الجمالية للنص القصصي، سلسلة مغامرات النص الإبداعي، د. محمد صابر عبيد، عالم الكتب الحديث، جدار الكتاب العالمي، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

الناقد محمد يونس صالح

* * *

أستطيع القول بعد هذه القراءة:

الخيال يفضي إلى آخر أكثر كثافة!.

.. عربة الخيال أصبحت خلف حصان القص، لابد وان تكون الخطوات واثقة وجامحة، طريق معبد لتسلق تل ينتظر.. هذه الشخصية، لم تترك وحيدة في نهاية (الصورة الأخيرة) فقط، لأنها ستظهر ثانية في قصص أخرى لأنها وببساطة (هيثم بردى -نفسه) فالقصة لم تنته بعد!!/...

القاص بولص آدم

* * *

مما تقدم، نلحظ أن معظم أبطال القصص الأربع، يقعون تحت خط الاغتراب والتمزق والخواء الروحي وفقدان الأمل بعالم هو في حقيقته (صحراء من المعنى)، ما يجعل التمسك بالخيال كقوة ذهنية لها القدرة على إيجاد بدائل افتراضية تتجاوز ما هو قائم بالقوة وتستدعي ما هو ماض جميل بالاستعارة والتمثيل، كذلك ركوب المغامرة إلى النهاية لتحقيق حلم ما، والاعتماد على التخاطر للتواصل مع حالات الافتقاد وموجبات الحنين، هو الرؤية الفاعلة لتحقيق ذواتهم سردياً أي تخييلياً بعد هيمنة الواقع بسلطاته المختلفة. ويتم ذلك في فضاء رومانتيكي بامتياز.

الناقد حسن السلمان

الفهرس

- تليباثي ٥
- الملحمة ٢٧
- الصورة الأخيرة ٥٩
- الأقاصي ٧٥
- السيرة الذاتية ٨٧
- مقتطفات مما كتب في (تليباثي) . . . ٩٦